مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

رمضان 1440هـ – مايو 2019م

- ديكتاتورية الهويات
- لوران ديبروي

- شمال إفريقيا...
- كاترينا روجِّيرو

- عودة السياسة...
- رضا شريف وفؤاد حسنوف

- ما بعدنا
- أندريه غريشنوف

- تذكر بودريار
- سيرج لاتوش

- المرتد
- يورام فان كلافرن

- المستقبل آسيوي
- باراج خانا

- بنيامين وأدورنو...
- كوري ماك كول

- شخصيات قيادية...
- محمد سمير مرتضى

- وهم النمو: الثروة..
- ديفيد بيلينجإبراهيم

إصدارات عالمية جديدة

صفحة 22 و 23

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من الشعراء الذين استلهموا العرب وثقافتهم في أعمالهم الشاعر والرحالة والصحفي الأمريكي نَثانيَلْ باركر ويليس Nathaniel Parker Willis (١٨٠٦ – ١٨٦٧). كان مُعاصرا وصديقاً لمشاهير الأدباء الأمريكيين مثل إدغار آلان بو وهنري وادسورث لونجفيلو، وكان يُصنَّف في زمنه بصفته «أعلى كتّاب المقالات الصحفية أجرا». وُلِد في ولاية ماين، ونشأ في بوسطن، ونشر في جامعة ييل في سنة تخرجه منها ١٨٢٧ قصائد نثرية تتضمن موضوعات من الكتاب المُقدس أكسبته شهرة واسعة. أسس «المجلة الأمريكية الشهرية» (١٨٢٩–١٨٣١) ، وهي مجلة أدبية نشر فيها بعضاً من أفضل قصصه وأشعاره، ورغم أنها لم تدم سوى عامين، برز ويليس من خلالها، وهو في مطلع شبابه، على أنه «أكثر المحررين الأمريكيين طلاقة في العالم». عمل لاحقاً مراسلاً في الشؤون الاجتماعية لصحيفة نيويورك ميرور، حيث سافر على نطاق واسع في أوروبا وإنجلترا وتركيا والشرق الأوسط (١٨٣٢–١٨٣٦) نتج عنها كتاب رحلات من ثلاثة مجلدات صدر بطبعة كاملة في نيويورك سنة ١٨٤٤. ومن العجيب أنَّ شهرته الواسعة التي اكتسبها في مرحلة شبابه انهارت فجأة في أواخر عمره؛ حتى أن كاتب سيرته توماس بيكر يقول: «يشار إلى ويليس اليوم فقط كحاشية سفلية مقارنة بالكتّاب الآخرين».

لنَثانيَلْ باركر ويليس قصيدة عجيبة بعنوان «العَلاّمة ثابتُ بن قرّة». نشرها ضمن ديوانه «ميلاني وقصائد أخرى» سنة ١٨٣٧. القصيدة مهمة؛ إذ يتداخل فيها الشعر، والعلم، والتصوف، وتدور حول العالم المسلم ثابت بن قُرّةَ الحَرّاني من علماء الفلك والرياضيات والهندسة والموسيقى في القرن الثالث الهجري، وكان شهيراً بترجماته عن اليونانية لأعمال أبولونيوس وأرخميدس وأقليدس وبطليموس. أنشر هنا مقطعاً من هذه الملحمة، مستمتعا بقصيدة التفعيلة التي أسعفتني جدا في التعامل مع نص طويل معقد كهذا:

من سَماءِ الجزيرةِ، هذا المساءَ، وقبلَ قليلٍ
تنزّلتِ الآلهه
دَيانا،
وقد طرَحَتْ في البحارِ الحِزَامْ،
والنجومُ المَهَيبةُ، قد بَقِيَتْ وَحْدَها
تحرسُ الأفْقَ حاذِرةً لا تريمْ،
ونائمةً كالقتيلِ
تمدّدتِ الأرضُ بيضاءَ مثلَ النَّدَى
ولا ظلَّ يُقْلِقُ أحلامَها،
والأريجُ المُعتَّقُ في وافرِ الورْدِ،
فتّقَ أزهارَه حالِمًا
وتسلّلَ عَبْرَ الأثيرِ الرُّخَاء.
ينتصبُ الآنَ بُرْجُ ابْنِ قرّةَ،
في شارعٍ أعزلٍ وسطَ مَكّة،
شامخًا غامضًا،
كلما احْلَوْلَكَ الليلُ
أشْعلَ مصباحَه
ثابتا مثلَ «كوكبة الدُّبِّ»،
ثمّ مَدّ من النافذة
أنابيبَه مِنْ نُحاس
وَوَجّهها أبدًا صَوْبَ نَجْمٍ توسّط
ذاك السَّديمَ الضَّبَابيَّ يَصّعّدُ الآنَ
مِنْ عَرَفاتْ.

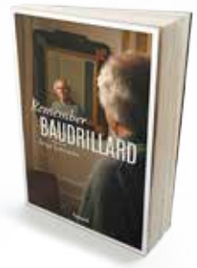

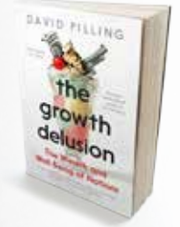

hilalalhajri@hotmail.com

ديكتاتورية الهُويات
لوران ديبروي

محمد الشيخ *

لَئِنْ دأب الفكر والفلسفة السياسيان القديمان على تناول قضايا شأن "المدينة" و«الفضيلة» و«نظام الحكم الأمثل» و«الحياة الطيبة»، ودأب الفكر والفلسفة الحديثان على مناقشة مواضيع شأن «الدولة القومية» و«التعاقد الاجتماعي» و«السيادة» و«المجتمع المدني»، فإنَّ هذين المبحثين أمسيا يدوران -في الفترة الراهنة- على موضوعات جديدة شأن «التعدد» و«الاعتراف» و«الهوية».. وما كان كتاب الفيلسوف والناقد الفرنسي لوران ديبروي الأستاذ بجامعة كورنيل الأمريكية -صاحب كتاب: «رفض السياسة» (٢٠١٢)- بدعا من ذلك. إذ يتناول في كتابه الجديد هذا -«ديكتاتورية الهويات» (٢٠١٩)- مسألة «الهويات» والسياسة المستندة إليها -«سياسة الهوية»- تناولا نقديا، مع التركيز على النموذج الأمريكي.

يفتتح الفيلسوف الشاب كتابه بمقدمة تعلن، بدءا، عن نبرة الكتاب النقدية السجالية: «ضد الهويات». ويصرخ لمن يريد أن يسمعه: «ألا كم كنا. معشر الناس. مخدوعين! وما اكتشفتُ الخدعة إلا بالأمس القريب!» ويواصل الحديث: إلى حد الآن، كنا نحسب أن موضوع «السياسة» هو «الخير المشترك». المصلحة العامة. و«الحرية الفردية أو الجماعية»، و«مزاولة السلطة»، و«صون المجتمع»، و«أشكال المواطنة»، و«تأطير الاستغلال»، و«الحماية من الهمجية»، و«رعاية المؤسسات»، و«القيام بالثورات»... وكنا نناقش هذه الأمور منذ آلاف السنين، وأحيانا بفورة وسورة. وكم قادت هذه النزاعات الشديدة إلى تمردات وانتفاضات واحترابات. والحال أنه يبدو أننا كنا على خطأ. ذلك أنه يتبدى أن مسألة «السياسة». في نهاية المطاف. قد تكون هي «الهوية»، التي إذ ترسخت في حياتنا كل الترسخ، فإنها أضحت تحكم خطاباتنا واستيهاماتنا وقوانيننا وحكوماتنا. أجل، ثمة «هويات»، وهي «هويات» تحكم عبرنا ومن خلالنا. وإهمالها ونكرانها والتنسيب منها أو التجاوز عنها من شأنه أن يبين عن دناءة هذه الهوية (الأغلبية بلا شك) التي تسعى لإسكات أولئك الذين تم إخضاعهم واستتباعهم.

وهكذا، صير إلى ادعاء أن «سياسة الهوية» هي الكمال الحق لكل السياسات، فهي تنظم مختلف طبقات الشأن العمومي والخصوصي معا. ويفضي إلينا المؤلف بأن الهويات أمست تحكم كل أمر: الهوية الذكورية ضد الهوية الأنثوية، والهوية البيضاء ضد الهوية الملونة... ولسوف تعمل «سياسة الهوية» -على حسب ما يزعمون- على حل هذه المعضلة، وذلك لا بصهر الهويات، وإنما بالضد من ذلك بتعزيزها: ألا وقد صار المطلوب من كل هوية أن تتقدم وأن تكشف عن وجهها وأن تعلن عن نفسها وأن تبدي مظلمتها وأن تعرب عن مطلبها... وبهذا تحولت هذه السياسة -المبنية على الهويات- إلى سياسة صبيانية تبعث على السخرية... وقد مثَّل لها المؤلف في هذا الكتاب بعشرات من الأمثلة مجملها مستمد من بعض القضايا الهوياتية الغريبة التي طرحت في المجتمع الأمريكي، حيث صارت، مثلا، في الأوساط الجامعية كل جماعة من الطلاب تطالب بالطعام الذي يحترم هويتها الخصوصية... وتنتفض ضد كل طعام مخالف لهويتها الخاصة! لكن المشكلة، في رأي المؤلف، أن هذا الأمر المثير للضحك قد تحول إلى برنامج سياسي.

ويرصد المؤلف هذه الحركة -من مطلب الهوية إلى سياسة الهوية- منذ بدايتها عام ١٩٧٧ إلى اليوم. والجديد اليوم عنده، بالقياس إلى الأمس، أن وسائل الاتصال الجماهيرية -وهي التي لطالما كان يُظن أنها وسائل العولمة بامتياز- أمست، على الضد، تعزز سياسة الهويات هذه وتمدها بدفعة قوية بدلا من أن تحد منها، وأن تجعل الناس يتعارفون فيما بينهم البين ويرعوون عن غلواء هوياتهم الضيقة. ذلك أنه بداية من أعوام ١٩٩٠ بدأت الموجة الثانية من هذه النزعة تتنامى بعد أن كانت قد تراجعت في النقاش العمومي التقليدي. وها هي عادت في سنوات ٢٠٠٠ لتستقر في الإنترنت ولتتحين ولتتجدد على نحو أشد فظاظة وخبثا.

ينقسمُ الكتاب إلى أربعة فصول يخصصها المؤلف إلى نقد «سياسة الهوية» على اعتبار أن هذه السياسة استبدادية وجبية المنزع، ثم يفضح منطق الضحية -جراح الهوية وندوبها- الذي تختفي وراءه خطابة الهويات، كما يفضح الوسائل التي تتوسلها الهويات لكي تمارس رقابتها المقيتة.

والمؤلف على وعي تام بأنه يجازف بقوله هذا ضد الهويات مجازفة صعبة، كما أنه يعلم مسبقا بأنه يمكن الكشط على تحليلاته بجرة قلم، وذلك من منطلق مقاومة الهويات لكل نقد باسم «قداسة النزعة الهوياتية». وجوابه عن هذين التحديين: أجل، ينبغي أن نرفع أصواتنا صادعة قوية ضد «عوي جماعات الهوية المستذئبة».

استبدادات

يقول لسان حال «سياسة الهوية»: «أنت على شاكلتك، وأنا على شاكلتي، وأنت تفكر على هذا النحو، وأنا أفكر على غيره «لا شيء يجمعنا، كنا طرائق قددا)». وبهذا تعزز «سياسة الهوية» بروز نزعة «استبدادية ديمقراطية»؛ حيث لا تعود السلطة التسلطية مرتكزة بين يدي الطاغية وحده، ولا الحزب الوحيد، ولا الدولة المستأسدة، وإنما تمسي في متناول أفراد خضعوا إلى عملية تأليه وتصنيع وتوجيه، بحيث أمست تعبرهم رغبات هيمنة شمولية توتاليتارية. وهكذا، يمسي الجميع رقيبا على الجميع «لي هويتي ولك هويتك، فلا تمسس هويتي»؛ بحيث لا تصير الدولة هي من يُعمل آلية الرقابة، وإنما الأفراد أنفسهم يعرضون فيديوهاتهم وتعاليقهم وصورهم ورسائلهم المتبادلة، مفتخرين يمشون في الأرض مرحا مستعرضين لهوياتهم: «هذه هويتنا». وهذا يظهر أن الأمر ما كان حادثة عرضت لنا في المسار، ولا كان مجرد مرحلة انتقالية، ولا حتى مرحلة جديدة بجدة جذرية، وإنما هو بالأولى تجربة مفاجئة وإرادية تجد مقدماتها في نزوع هوياتي تسلطي بدأت ملامحه تتبلور منذ سنين خلت.

حتميات

تتقدَّم «سياسة الهوية» وهي مزدهية بما تعده مزايا ثلاث تتوافر فيها: تقوم على «الأصالة»، وتعبر عن «المحافظة على الأصول»، وتمثل «مصير» الجماعة الهوياتية. وهكذا، ينتشر، مثلا، ضرب من الخطاب المعادي للعنصرية، وهو واهي الحجة، لكنه سريع الانتشار، يشدد على استحالة أن يختار الأفراد «عرقهم». وقد يتبعه في ذلك ضرب رائج من الخطاب حول «النوع». ويجتمعان معا على أن «الهوية» إنما تتحدد بالجبرية ولا تُختار بالطواعية. وهما يذهبان إلى أن انجذابات الشخص إلى الهوية وانفعالاته إنما تعود إلى صبغياته وبيان هرموناته وعقدة أوديب والظروف الاجتماعية-

التاريخية التي تحكمت في طفولته، أو حتى تعود إلى إرادة الرب: «هكذا خُلقْتُ!» وفي هذا التصور الرائج خليط عجيب من «الحتميات» قد تكون أحيانا بمباركة من علم شبيهي لا حقيقي دائر على هوية جامدة غير سيالة. ويضحى الوجود هنا قضية توجيه وتحكم. ويمسي المطلوب من المرء أن يتبع «هويته الحقة» التي رسمت له سلفا. وفي هذا تحالف غريب مريب بين اللاهوت والعلم المبسط والعلاج النفسي والحتمية الاجتماعية والتاريخية يفضي إلى الإيمان بخرافة «الهوية الحقة».

ويعارض المؤلف هذه الفكرة باستحضار نماذج وأمثلة عن هويات مبدّلة. إذ كم من واحد اكتشف أن هويته الحقة المزعومة إنما كانت هي هوية زائفة، على نحو ما يحدث في عمليات تبديل الدين والجنس والعوائد والمذاهب والمعتقدات... ومما طم الوادي على القرى أنه تم تسييس هذا المنطق الهوياتي الأعرج بما أمسى يسمى «سياسة الهوية». وجواب المؤلف عن هذا التحدي: كلا؛ ما كنا كيانات -معشر البشر- سياسية تحددنا هويات. هذه تقسيمات جبرية استبدادية توتاليتارية لا يمكن أن ندعها تحدد لنا ما نحن وكيف نكون، وأن تحتوينا فيها كل الاحتواء، فلا تترك لنا مما نريد أن نكونه شيئا.

جراحات

في سياسة الهُوية، التي تنزع إلى إلغاء الخيار الحر، تعد المعاناة هي الأولى، وتعتبر أمرا لا ينمحي. ومن هنا ارتباط الهوية بالجرح: الهوية المنجرحة هي التي أمست تحدد من أنا ومن أكون. والنتيجة هي تحول الأنا الهوياتي إلى جلاد جديد يجلد الجلادين القدامى. أكثر من هذا، تسعى الهوية الجديدة، وقد حملت ندوب جراح الماضي، إلى حشر الآخرين في هويات مصطنعة وتسعى للتسلط عليها كل التسلط: هو ذا الضحية الذي يستحيل جلادا. والمفارقة هنا أنه إذا ما هو التأم الجرح ضعفت الهوية، فلا بد إذن من نكء الجرح من جديد حتى تبقى الهوية موشومة في الذاكرة العميقة. فلا سبيل إلى الحفاظ على الهوية اللهم إلا باستدامة ذكرى الجرح: العصاب والأسى. والحال أن من شأن امرئ يحدد نفسه بالألم وبالجرح أن يقيم دوما في مقام «الضحية»؛ حيث كل «مس» بالشخص، واقع أو محتمل، يُتصور على أنه نفي للشخص وقهر من شأنه أن يُعلِم عن رغبة في الاجتثاث ونزعة إلى الإبادة. هو ذا ما يشكل هوية الضحية. ولئن كانت تجارب أمريكية قد لجأت إلى خلق ما يسمى «فضاءات آمنة» لا يشعر فيها المرء بأي جرح في هويته، فإن المؤلف يرى أنه كلما زاد «الأمن الجماعاتي» على الهوية ضاع الفرد، وأنه بدل أن تحمي هذه الفضاءات

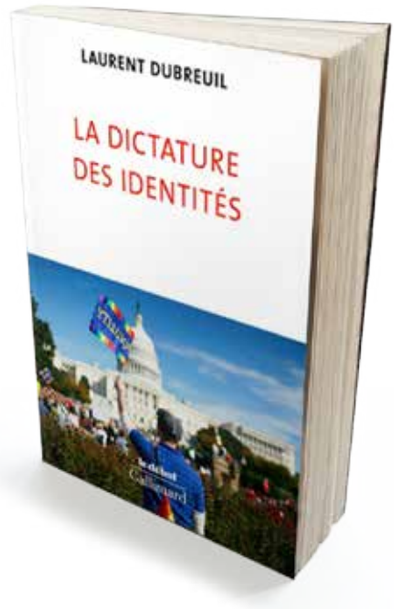

الآمنة الأفراد من العدوان، فإنها تجعل العقول تجف، وتلغي الأرواح، وتهدد الأجساد. وذاك هو ما يسميه المؤلف باسم «استبدادية الديمقراطية» التي تنشر الانقسامات الهوياتية والعداء المتبادل باعتبارها هي الحكامة الجيدة.

رقابات

قد يذهب البعض إلى أن الفضاء المؤمَّن الوحيد للتعبير عن الهويات السياسية هو ممارسة الرقابة على كل ما من شأنه أن يهدد الهوية. ودعاة الرقابة هؤلاء يدعون أنهم يتكلمون باسم الآخرين، مهما أنكروا هم ذلك، معتبرين أن الآخرين من «أمثالهم»، وذلك من دون أن يملكوا حجة على ذلك ولا داع إليه. وعلى هذا النحو يتم ادعاء السيادة على كلام جماعي وقد تم الاستحواذ عليه والاستئثار به: يقررون ما الذي ينبغي أن يُتحدث عنه، وحول ماذا، وكيف، ولماذا، ومتى... ومن ينبغي له أن يتكلم، ومن ينبغي له أن يسكت. وهكذا تنكشف آلة الرقابة السياسية، فلا يتم فقط الحفاظ على النظام السياسي السائد بدعواته إلى الإحراق والإتلاف والحظر والمنع، وإنما يتم تعزيز الهويات المنجرحة التي من مصلحتها ألا تضع حدا لما يؤسسها.

على سبيل الختم

يختم المؤلف كتابه بما يشبه الإفضاء والإسرار: أنا لا أتحدث باسم أي كان، بل لا أتحدث حتى باسمي. ذلك أن حياتي ما كانت على نمط واحد -هوية متجانسة لا سوية فيها- وإنما انصبغت حياتي بلقاءات وأحداث وأوضاع وظروف، وأنا لست أعد حياتي هذه أبدا، وعلى خلاف أصحاب منطق الهوية، «مصيرا» أو «ثمرة». لا توجد ههنا هوية ثابتة جامدة نهائية، كل هوية تكون سيالة بدالة ذائبة. ذلك أنه لو أن أمرا أصاب أعصابنا ومس بها، لحول شخصيتنا من «هوية» إلى «هوية» أخرى. إذ يمكن للإنسان أن يتطور في حياته أطوارا.

والحال أنَّ الخوف من التطور بأطوار هو بالذات الذي يؤدي إلى الانكفاء على ماضي معطى سلفا، وإلى القول بإصرار: «هكذا أنا!» أو «هكذا خلقت!» و«هكذا هي أسرتي!» و«نحن لا نتصرف على هذا النحو!» و«هذه طرقنا في الفعل!» و«حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا!». هو ذا منطق الهوية القبلية. وجواب المؤلف على هذه المنطق: كلا؛ ما كان «الماضي» و«المعطى» و«المسبق» ضمانة لي، وهم لا يتحكمون في. ولا ينبغي أن نترك أهل السياسة يلعبون على هذه الحبال. وصلتي بالسياسة سوف تنجلي دوما على ضوء ما أريد أن أفعله بنفسي. ولا بد من كسر الأسوار، والدفاع عن مبادئ أقل خضوعا إلى الرقابة وأقل ميلا إلى التحكم.

أكثر من هذا، كل عمليات صنع الهوية -التماهي أو التهاوي- تبقى جزئية وغير تامة ومتعددة وقابلة للمراجعة، وهي غير محددة للمرء التحديد النهائي ولا ذات مرجعية ثابتة. هذا هو التصور الذي لا يتحقق عنه الضرر، وهو تصور ضد الهويات الشاملة الكلية. على أن هذا لا يمنع المؤلف من إعلان تحفظه على منطق التنويع والتهجين العابر للعرقيات الذي بدأت تسلكه بعض الدول الغربية؛ وذلك لأنه لا يفلح دائما في تبديد مخاطر سياسة الهوية، بحكم أنه غالبا ما لا يقدر على مقاومة هيمنة المنطق الهوياتي الذي له سلطان قوي وملك عضد عظيم؛ وبالتالي فإنه بالضد يعمل -وقد امتزج مع انتشار التقنيات الوسائطية- على تعزيز الهوية أكثر مما يعمل على إضعاف حدتها. ولهذه الحيثية، لا بد من التخفيف من سورة التسييس، بل لا بد من الخروج عن أسوار المدينة المغلقة.

وينهي المؤلف معركته ضد «سياسة الهوية» بالحديث عن أهمية الفن بوصفه مفككا للهويات الصلبة؛ ذلك أنه عوض أن تعيدنا الأعمال الفنية إلى الماضي، وأن تجعلنا ننغلق في الهوية، فإنها تقترح علينا تجريب طرق تفكير وإحساس من شأنها أن تكون عابرة للهويات، ومقوضة للتصلبات، ومذكرة بهشاشة كل هوية قشفة... ومتمردة على كل رقابة ضيقة العطن.

- الكتاب: «ديكتاتورية الهويات».
- المؤلف: لوران ديبروي.
- الناشر: جاليمار، بالفرنسية، ٢٠١٩م.

*** أكاديمي مغربي**

شمال إفريقيا في عهد الاستقلال وطأة الإمبريالية والقومية والسلطوية كاترينا روجّيرو

عزالدِّين عناية *

سواء تحدّثنا عن شمال إفريقيا أو عن المغرب الكبير، في مُقابل المشرق العربي، فالبيّن أنّ تلك المصطلحات متقاربة الدلالة وحاملة لمضامين جيوستراتيجية متداخلة. وإن يبدو مصطلح شمال إفريقيا، في الراهن الحالي، الأكثر تداولاً في السياسة العالمية، أثناء الحديث عن المنطقة الممتدّة من مصر مرورا بليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وإلى غاية بلاد شنقيط. فهذه المنطقة المترامية لا تتميز بتجانس تاريخي وسياسي وثقافي، سوى في حدود بلاد المغرب، حيث تبقى مصر كتلة مهمّة ذات خصوصيات حضارية متميزة تفصل بين المشرق والمغرب، كما تبقى في التاريخ الحديث دولة منغمسة في الشأن المشرقي، من حيث الارتباط بوقائعه ومصائره وقضاياه منه ببلاد المغرب.

منذ مطلع كتابها تنتقد المؤلّفة كاترينا روجّيرو المقاربات الغربية عن تاريخ المنطقة. فقد تعمّدت المدرسة التاريخية الفرنسية، إبّان الحقبة الاستعمارية، ترسيخ جملة من الأحكام والمزاعم بشأن بلدان الغرب الإسلامي، عملت من خلالها على التهوين من كلّ ما هو عربي، في مسعى لاختلاق هوية مغاربية ملحَقة بفرنسا ومفرَغة من أبعادها الحضارية العميقة. وقد تطوّر ذلك التمشّي مع شارل أندري جوليان وهنري تِرّاس خصوصا. اختلق المؤرخان المذكوران ديناميكيات تاريخية لا أساس لها من الوجود، لتبرير سياق الاحتلال الأوروبي للبلدان المغاربية. وعلى سبيل الذكر تسلّطت على مقدم الهلاليين إلى بلاد المغرب، في القرن الحادي عشر الميلادي، اتهامات مجحفة وأحكام مغرضة، بشأن أثرهم التخريبي في المنطقة، انجرّ عنه تراجع حضاري فاجع في بلاد المغرب على حدّ المقاربة الاستعمارية. حاول المؤرّخ المغربي عبدالله العروي في مؤلّفه: «مجمل تاريخ المغرب» بيان تهافت تلك الأطروحة التاريخية، مبرزا أنها من اختلاقات القراءة الاستعمارية.

وتفسّر الكاتبة روجّيرو استمرار إرث المُستعمر الفرنسي في بلاد المغرب قويّا وفاعلا، لاهتزاز حاصل في البنية الحضارية في المنطقة. فقد كان تحويل المخزون الحضاري الإسلامي إلى ضرب من ضروب الفولكلور، وطمس الرصيد المؤسساتي التاريخي، حائلين دون قيام بديل حضاري ندّي لما خلّفه المستعمر. وتعود أسباب الوهن الحضاري في تلك الربوع، وتراجع عنصر التماسك الاجتماعي، وفق الكاتبة، إلى التفاوت الحضري الريفي الطاغي، وإلى شكلية التمدرس وفراغ العملية التربوية من مضامينها المعرفية والهوياتية. أفرزت تلك العوامل نوعاً من التشظي السياسي انجر عنه تأخّر اقتصادي، رغم ما تزخر به المنطقة من إمكانيات وقدرات. هذا وقد شكّل القبول والرضوخ لسلطان الدولة العثمانية في ثلاثة بلدان مغاربية، ليبيا وتونس والجزائر، دليلاً وفق الكاتبة على وهن البنية السياسية المزمن في تلك البلدان. وربما كانت حالة المغرب الأقصى استثناء، لانبناء مؤسسة الحكم على عصبية شريفية، ضمنت ديمومة المؤسسة الحاكمة وتطوّرها.

انشغل الفصل الأول من الكتاب بأوضاع شمال إفريقيا زمن الإمبراطورية العثمانية، مرورا بأثر الحقبة الاستعمارية، وإلى غاية أطوار حرب التحرير التي شهدتها تلك البلدان، وما أسفرت عنه من بناء الدولة الوطنية. حاولت المؤلفة في هذا الفصل بيان ثقل القرون الأربعة التي مرّت بها المنطقة وعمق أثر تلك الفترة على البناء الاجتماعي والعقلية السائدة. متسائلةً في الأثناء إلى أيّ مدى يصحّ اعتبار خرائط دول ما بعد الاستعمار في شمال إفريقيا خرائط معبّرة عن عمق واقع التكتلات الحضارية وتطلعاتها، أم هي مجرد تقسيمات أملتها حاجة المستعمر، مما خلّف فتورا في التماسك الاجتماعي؟ ومن جانب آخر حاولت المؤلّفة استعادة نضالات حركات التحرير في المنطقة، وما صاحب تضحياتها من وعود في بناء الدولة الحديثة. خصصت الكاتبة ضمن ذلك العرض حيزًا مهمّا لحرب التحرير الجزائرية، مذكرة بأبعاد الثورة الجزائرية وعمق تأثيرها في مجالها الإفريقي والعالم الثالث عموماً، متسائلة إلى أي مدى حققت تلك الثورة أهدافها في الوقت الراهن؟

ودائما ضمن هذا الفصل، تشير الكاتبة إلى أنّ الحضور العثماني في بلاد المغرب، وعلى خلاف مثيله في المشرق، لم يخلّف ضغائن في المخيال الجماعي لشعوب المنطقة. فقد لعب الحسّ العروبي والقومي المتأجّج في المشرق دورًا مؤثّرا في ترسيخ الضغائن من الدولة العثمانية والسياسات التركية، وهي ضغائن لا تزال حاضرة حتى الراهن في الموقف من تركيا الحديثة.

في الفصل الثاني حاولت المؤلفة تسليط الضوء على علاقات التواصل بين بلدان شمال إفريقيا والدول الأوروبية، سيما منها الدول ذات الماضي الاستعماري في المنطقة، مبرزةً عمق تأثير تلك المرحلة حتى التاريخ الحالي. فقد تنازعت المنطقة سياسات دولية متنوعة، سيما فترة الحرب الباردة، كانت بالغة الأثر على خياراتها الاقتصادية والإيديولوجية والتربوية والتعليمية. تتوقّف الباحثة عند نقطة مهمّة متعلّقة بالسياسة الخارجية لبلدان الشمال الإفريقي على مدى عقود، مبرزة ما تخلّلها من تضارب وسوء انسجام، وهو ما أثّر على أوضاعها الداخلية من حيث بناء لُحمة بين شعوب المنطقة سواء في مستوى اتحاد بلدان المغرب العربي، أو بشأن التطلع إلى خلق كيان اتحادي شمال إفريقي، منذ التقارب الكبير بين الناصرية والسلطة الاشتراكية في الجزائر إبان فترة الرئيس الهواري بومدين.

تخصّص الكاتبة حيزًا مهمّا ضمن الفصل الثالث من كتابها إلى موضوع السلطة والتسلّط عبر تاريخ المنطقة الحديث، متتبّعة أشكال اعتلاء السلطة في المنطقة مع مختلف الأنظمة، ومبرزة ما افتقرت إليه العملية من مراعاة للإرادات الشعبية. خلّفت تلك الممارسات آثارا سلبية في القدرة على مراقبة العملية السياسية، ومجابهة تفشّي الفساد، بما ترتّب عنه إنهاك للدولة واستنزاف لقدراتها من قِبل المافيات المتحكمة بدواليب الاقتصاد. وتُعلّل الكاتبة أزمة الديمقراطية في المنطقة بموجب استحواذ طُغم عسكرية في الجزائر وليبيا ومصر والسودان على مقاليد السلطة، فكان أن تشكّلت أنظمة مستبطنة للفشل، لم تقدر على مواصلة البناء الديمقراطي الحقيقي، جرّاء البيرقراطية المتغولة، التي حالت دون الاستغلال الصائب للمصادر الطبيعية لصالح الشعوب.

في الفصل الرابع من الكتاب تَركّزَ الاهتمام على فترة الثمانينيات من القرن الماضي، برصد بوادر التحول نحو الديمقراطية، وبيان مختلف العراقيل التي حالت دون ذلك، سواء من الأنظمة الرافضة للتغيير أو بفعل الصراعات السياسية الطاحنة، الأمر الذي جرّ بعض البلدان إلى أوضاع تسلّطية مستجدّة. وتشير المؤلفة إلى تحكّم جملة من الأوهام بالعملية السياسية في منطقة الشمال الإفريقي في أعقاب

الاستقلال. ففي ظلّ أوضاع شعوب منهكَة، خرجت لتوّها من قبضة المستعمر، استبدّ بمجمل الزعامات السياسية حينها، بدءا من عبد الناصر ومرورا ببورقيبة وبومدين، ثم أخيرا بالقذافي، هاجسُ الزعامة والقيادة للأمّة. تحوّل على إثرها فضاء بلدان شمال إفريقيا إلى حلبة لمغامرات الزعامات المتنافسة، دون أن توفق في خلق تكاتف بينها لبناء نهضة تنموية شاملة لشعوبها. لقد جرّ التطاحن الإيديولوجي والسياسي بين تلك الزعامات إلى توتّر بين دول المنطقة في عدة مناسبات، وإلى قطع العلاقات أحيانا، كما جرّ إلى شنّ حروب، وأبرز مظاهر تلك الانقسامات توزّع المنطقة بين معسكرين غربي رأسمالي وشرقي اشتراكي طيلة الحرب الباردة.

تُخصّصُ الكاتبة الفصل الخامس والأخير من الكتاب إلى تداعيات الربيع العربي على المنطقة. حيث تلحظ ترافُقَ مطالب التغيير الملحّة مع أوضاع أمنية هشّة استندت إلى مؤسسات مهترئة، ما حوّل المطالب الديمقراطية المشروعة إلى تهديد فعلي لكيان الدولة، فحصلت انهيارات فجئية كما هو الحال في ليبيا لا تزال آثارها تهدّد المنطقة برمّتها. ملمح آخر تُسلّط عليه الكاتبة الضوء، وهو أنّ أوروبا المجاورة للشمال الإفريقي لم تعضد الديمقراطيات الناشئة، ولم تراهن عليها، واعتمدت في علاقاتها مع الأنظمة الجديدة معايير المصلحة الآنية. الأمر الذي جعل الديمقراطيات الناشئة، كما هو الحال في تونس، تجابه صعوبات جمّة في شقّ طريق التنمية بفعل الأوضاع الاقتصادية الرثّة وبفعل المديونية المرهقة لبلدان أفقرتها مافيات الأنظمة التسلّطية. تبدو الديمقراطية الناشئة في تونس متروكة لحالها دون سند يُذكَر من الغرب المتفرّج، ذلك ما تخلص إليه الكاتبة بشأن السياسة المغاربية الأوروبية.

وتذهب الكاتبة إلى أنّ موجة الربيع العربي، بين ٢٠١١ و٢٠١٣، لم تفلح في الخروج بالمنطقة من أزماتها الهيكلية المزمنة منذ حقبة ما بعد الاستقلال، بل زادت الأمر تفاقمًا. لذلك تبدو بلدان شمال إفريقيا في العام ٢٠١٩ في منتهى الهشاشة السياسية والاجتماعية، ومنقسمة بين تجاذبين: شقٌّ عوّل على الاستثمار في الديمقراطية، وإن كان ضمن مصاعب جمة اقتصادية واجتماعية؛ وشقٌّ ارتدّ في الممارسة السياسة والاجتماعية إلى ما قبل وعود الربيع العربي. وفي ظلّ تلك الأوضاع المتداخلة المخيّمة بظلالها على المنطقة، تلوح أحلام الاتحادات والتكتلات المغاربية والعربية بعيدة المنال. فالدول الحالية مشغولة بلملمة أحوالها أكثر منها معنية بخطط مستقبلية لصالح شعوب المنطقة، مع أنّ عناصر قويّة متوفّرة للتعاون الاقتصادي والاجتماعي بين دول المغرب الكبير خصوصًا، كان بالإمكان أن تبنى على أساسها شراكة مصلحية، ودون الانشغال بالقضايا الجانبية، لكن يبدو كما تلاحظ الباحثة أنّ التجمعات الكبرى تمثّل مشكلة كبرى أحيانًا، لما تتنازعها من تناقضات داخلية وارتباطات خارجية تحول دون تحقيق مراد شعوبها.

من جانب آخر تتطرّق الكاتبة إلى مخاضات الديمقراطية في المنطقة، عبر تتبّع أسباب نجاح التحوّل الديمقراطي في تونس وتعثّر العملية في بلدان أخرى مجاورة، من خلال مقارنات دقيقة بين مجتمعات شمال إفريقيا، معلّلة نجاح العملية في تونس بعنصر أساسي متمثّل في اتساع الطبقة المتعلّمة قياسا بدول أخرى، وهو ما يَسّر اختزان وعي حضاري فاق رصيده ما عليه الدول المجاورة. كما أبرزت الكاتبة أنّ مفهوم الدولة المؤسساتية هو مفهوم مترسّخ في الوعي المواطني التونسي، وهو ما حال دون انزلاق البلد إلى الفوضى. فقد بقيت المؤسسات العمومية والمصالح الإدارية ومرافق الخدمة العمومية، طيلة فترة الثورة، تؤدّي مهامها ولم تتعطّل مصالح الناس حتى أثناء انهيار نظام بن علي. جانب آخر أبرزت الكاتبة أهميته، وهو ما لم يتوفر في المجتمعات المجاورة، يتمثّل في المساواة الفعلية للمرأة مع الرجل، وهو ما جعل مشاركتها في عمليات التغيير التي خاضتها البلاد مؤثرة.

وفي تناول الكاتبة لمسألة الإسلام السياسي في منطقة شمال إفريقيا، حاولت الخروج من حالة التعميم التي تطغى على تناول الموضوع، خالصة إلى أنّ الإسلام السياسي في مصر قد بقي رهين نظرة الستينيات للمجتمع، حيث لم تحدث تحولات عميقة داخله، تُمكّنه من التعايش مع التيارات العلمانية، اليسارية منها والليبرالية، أو تعيد صياغة نظرته للمجتمع، لتدنّي المكون الفكري والحسّ النقدي داخل أطره القيادية والتنظيمية. بخلاف ذلك شهد الإسلام السياسي في تونس والجزائر والمغرب تطورا وتغيرا، جعله أكثر قدرة على التنسيق والمناورة وأحيانا التحالف مع التيارات العلمانية. يسّر ذلك المنزع البراغماتي للإسلام السياسي المغاربي التعايشَ مع التحولات وجنّب الاصطدام بالسلطة. معتبرة الكاتبة نجاح الإسلام السياسي في المغرب مع «حزب العدالة والتنمية»، في قيادة الحكومة في عدة مناسبات، فضلا عن تجربة الوفاق الناجحة في تونس بين الأحزاب العلمانية وحزب «حركة النهضة» الإسلامي من النجاحات التي تحسب للإسلام السياسي المغاربي.

تقرّ المؤلّفة أنّ أبرز العوائق التي جابهها البحث تتلخّص في العجز عن الاطلاع على المصادر المتعلّقة بشمال إفريقيا في شتى المجالات. وهو نقصٌ عائد في الواقع إلى عجز لغوي، يتمثّل أساسا في ندرة الملمّين بالعربية والمقتدرين على قراءة نصوصها أو فهم خطاباتها من قبل جيل المستشرقين والباحثين الإيطاليين الجدد المتابعين لأوضاع البلاد العربية. ثمة ثغرة في الكتابات الإيطالية عن العالم العربي ناتجة عن عدم الغوص المباشر في الواقع العربي، والكتابة عنه بالاعتماد على ما دُوّن في الكتابات الغربية. لذا يبقى المقول الإيطالي المدوَّن عن الأوضاع السياسية والاجتماعية في البلاد العربية الراهنة، من زاوية علمية، مقولا منقوصا. فالتحليل العلمي للوقائع يُفترَض أن يستند إلى كمّ مباشر من المعلومات، وهو غالبا ما لا يتسنّى للباحث الإيطالي.

ضمن حوصلة عامة، تنتهي الكاتبة إلى أن منطقة شمال إفريقيا هي محط أنظار القوى الكبرى، سواء في الماضي أم في الحاضر، بفعل القرب من أوروبا وبفعل الدور الهام لتلك الدول في التواصل مع عالم الجنوب. كما أنّ تلك المنطقة تشكّل تكتلا سكانيا معتبَرا يطلّ على المتوسط بما يجعل الاستقرار أمرًا حيويًّا في ضفة المتوسط الجنوبية. صحيح تسود أجواء ديمقراطية شمال المتوسّط، غير أنّ الأنظمة الأوروبية لم تسع يوما إلى تصدير نماذجها السياسية للضفة الجنوبية، وإن انتقدت أساليب الحكم التعسفية والتسلطية التي مورست أو تمارَس في المنطقة، فإنّ ذلك يأتي ضمن مواقف ظرفية وليس ضمن استراتيجيات ثابتة.

نبذة عن المؤلّفة: كاترينا روجّيرو باحثة جامعية إيطالية متخصّصة في التاريخ السياسي لشمال إفريقيا في جامعة الدراسات بميلانو (إيطاليا). سبق وأن نشرت مجموعة من المؤلفات منها: «الجزائر والمغرب الكبير» (٢٠١٢)، «تاريخ الجزائر بعد الاستقلال.. من حرب التحرير إلى بوتفليقة» (٢٠١٨).

الكتاب: شمال إفريقيا في عهد الاستقلال.. وطأة الإمبريالية والقومية والسلطوية.
تأليف: كاترينا روجّيرو.
الناشر: منشورات جونتي (فلورنسه- إيطاليا) "باللغة الإيطالية".
سنة النشر: ٢٠١٩.
عدد الصفحات: ٤٨٠ ص.

* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا

عودة السياسة التي لن يتم تسميتها: مبادئ السياسة الصناعية

رضا شريف وفؤاد حسنوف

محمد السالمي *

لطالما شكّل النمو الاقتصادي أبرز المواضيع المطروحة لصُنّاع القرار والأكاديميين بشكل عام. فعلى مدار نصف قرن من الزمان الماضي، سلكت الاقتصادات النامية مسارات مختلفة تمامًا، دون أن ننسى المعجزات الآسيوية مثل هونج كونج (الصين) وكوريا الجنوبية وسنغافورة، وتايوان، والتي غالبا ما يسلط عليها الضوء على نجاح تخطيطها الاقتصادي. وعلى الرغم من ذلك، فإن نجاح المعجزات الآسيوية في السياسة الصناعية يُمثل قصة غير مريحة يتجاهلها الكثيرون أو يدعون أنه لا يمكن تكرارها باستخدام النظريات والأدلة التجريبية. وبالمثل، يدعو العديد من الاقتصاديين وواضعي السياسات إلى مزيج متعدد من حيث طرح سياسة تدعم النمو وتشمل الانفتاح على التجارة وسهولة ممارسة الأعمال التجارية والبنية التحتية والمؤسسات الجيدة والاستقرار الكلي والتعليم الجيد وتراكم رأس المال.

يُجادل المؤلفان رضا شريف وفؤاد حسنوف -الخبيران لدى صندوق النقد الدولي- أنَّ مسارات تطوير المعجزات الآسيوية وكذلك اليابان وألمانيا والولايات المتحدة من قبلها، توفر لنا أدلة مهمة لنجاحها. نحن ندعي أن وصفات سياسة النمو القياسية ليست كافية، بينما نجد قواسم مشتركة قوية في السياسات التي تتبعها المعجزات الآسيوية، ولا يمكن للمرء أن يتجاهل الدور البارز للسياسة الصناعية في تنميتها. والدليل على ذلك أنهم لم ينجحوا في اللحاق بالعالم المتقدم فحسب، وإنما أدى النموذج الاقتصادي للمعجزات الآسيوية إلى تقليص الفجوة في مستوى الدخل مع معظم البلدان المتقدمة أيضا. وفي المقابل، لا يتطرق الكاتبان إلى سياسات الصين على الرغم من وجود العديد من أوجه التشابه مع السياسات التي تتبعها المعجزات الآسيوية لأن الصين لم تحقق بعد وضع الدخل المرتفع بعد.

يُركز المؤلفان كثيرا على سياسة التكنولوجيا والابتكار كونها «سياسة صناعية حقيقية»؛ حيث إنَّ الأمر كله يتعلق بمكاسب الإنتاجية من الابتكار وتطوير الصادرات. إن التفسير النظري لعدم وجود نمو مستدام، خاصة في «مصيدة الدخل المتوسط»، يتعلق بتباطؤ الإنتاجية كون أن المكاسب من العمالة منخفضة التكلفة وتقليد التكنولوجيا الأجنبية تتناقص عند الانتقال عبر مراحل التنمية. ونظرًا لأن بلد ذوي الدخل المنخفض قد يصبح بلدًا متوسط الدخل، فإنه يحتاج إلى العثور على مصادر جديدة للنمو لأن فوائد العمالة منخفضة التكلفة ومكاسب الإنتاجية من إعادة تخصيص القطاع من الزراعة إلى التصنيع وتبني التكنولوجيا الأجنبية السهلة، وارتفاع الأجور، وتآكل القدرة التنافسية قد يدخل الدولة في دوامة ركود مستقبلا في حال استمرار الوضع على ما هو عليه. للحفاظ على النمو، يحتاج أي بلد إلى تقديم سلع جديدة باستمرار واعتماد وتطوير تكنولوجيات جديدة. إن تقديم سلع جديدة باستمرار بدلاً من التعلم فقط على مجموعة ثابتة من السلع هو ما يلزم لتحقيق مكاسب إنتاجية ونمو مستدام، ورفع في مستوى الدخل.

وتُشير الدراسة إلى أن «سياسة التكنولوجيا والابتكار» قد ساعدت المعجزات الآسيوية على تحقيق نمو مستمر؛ وذلك بفضل تأثيرها على تطور الصادرات والابتكار. واستنادًا إلى تجاربهما، يحاول الكاتبان الكشف عن العناصر التي شكلت جوهرها الرئيسي. يُمكن للمرء أن يستشهد بالعديد من الأمثلة من الخطب والقرارات السياسة. ومع ذلك، فإن القرارات الملموسة التي اتخذت في ذلك الوقت من قبل الدولة (أو القطاع الخاص بتشجيع أو بإكراه من الدولة) تُظهر بوضوح كيف كانت كوريا في أوائل سبعينيات القرن العشرين جادة بشأن هذه الأهداف. تم ترجمة الأهداف السياسية الطموحة للحاق بالركب مباشرة إلى أهداف دقيقة لتطوير صناعات مختارة، وبمبادئها الثلاثية الطموح والمساءلة والقدرة على التكيف. ويمكن تلخيص استراتيجية السياسة الصناعية وتدخل الدولة في المعجزات الآسيوية على النحو التالي:

أولاً: التدخل لخلق قدرات جديدة في الصناعات المتطورة من حيث اتباع سياسات لتوجيه عوامل الإنتاج إلى صناعات تجارية قابلة للتطور التكنولوجي تتجاوز القدرات الحالية.

ثانيا: التركيز على التصدير حيث من المتوقع أن يتم تصدير أي منتج صناعي جديد فورًا؛ فحتى مع تغير الظروف، تكيفت كل من الدولة والشركات بسرعة. ثالثاً المنافسة الحادة في الداخل والخارج والمساءلة الصارمة؛ حيث لم يقدم أي دعم دون قيد أو شرط على الرغم من أن تقييم الأداء لم يكن بالضرورة يعتمد على أرباح قصيرة الأجل. بينما قد تحصل صناعات معينة على الدعم، فإن المنافسة الشديدة بين الشركات المحلية شجعت بشدة في الأسواق المحلية والدولية.

وعلى الرغم من أن أدب النمو النظري والتجريبي لم يجد بعد الوصفة السحرية للتنمية الاقتصادية، فإنَّ مكاسب الإنتاجية المستمرة هي مفتاح اللحاق بالنمو المرتفع. إن الانتقال من إستراتيجية نمو قائمة على الاستثمار إلى إستراتيجية قائمة على الابتكار، واعتماد وتطوير تكنولوجيات جديدة، وإدخال منتجات جديدة، وتشجيع المنافسة وتقليل سوء تخصيص الموارد، وتحسين قدرات التعليم والبحث، وزيادة تطور الإنتاج والتصدير، هي مسارات محددة لتحفيز المكاسب الإنتاجية. كل ما هو مطلوب إذن هو تصميم سياسات ذات الصلة وتنفيذها. ومع ذلك، كما يبين تاريخ نصف القرن الماضي أن حفنة من الدول فقط هي التي استوعبت أو وصلت لتقارع العالم المتقدم. التفسير النموذجي هو أن العديد من البلدان النامية لم تتبع نصائح سياسية حول النمو. أولاً: ما هي سياسة النمو الصحيحة؟ ثانياً: هل فشلت الدول في تنفيذ هذه السياسة، أم أن هناك عقبة كبيرة أخرى في منع البلدان النامية من اللحاق بالعالم المتقدم؟ نُؤكد أن هناك عنصرًا مفقودًا في العديد من مناقشات سياسة النمو. هذا العنصر المفقود هو معالجة «فشل السوق».

لا تُعاني دول مجلس التعاون الخليجي المصدرة للنفط من إخفاقات حكومية كبيرة، ومع ذلك فهي تفتقر إلى

حد كبير في القطاع غير التجاري للنفط. فقد حققت دول مجلس التعاون الخليجي، خاصة الإمارات العربية المتحدة، درجات عالية في مقاييس جودة البنية الأساسية وبيئة الأعمال. وبالمقارنة، فإن أداء الدول المصدرة للنفط مثل إندونيسيا والمكسيك، والتي تأخرت في تنظيم المؤشرات التجارية، كانت أفضل في تطوير المنتجات غير النفطية وتعزيز تطور الصادرات.

إنَّ الحجة القائلة بأنَّ إخفاقات السوق تحول دون تطوير القطاع الغير النفطي القابل للتداول في الدول مجلس التعاون الخليجي تتضح أكثر من خلال الأنشطة التجارية للشركات الكبرى. هذه الأنشطة هي في الغالب في قطاع غير قابل للتداول مثل البناء والخدمات بما في ذلك التمويل والسياحة (معظم الأنشطة في هذه القطاعات غير قابلة للتداول). تتمتع التكتلات بإمكانية الوصول إلى الأرض والتمويل والبيروقراطية الحكومية والأسواق العالمية والقدرة على استيراد المهارات إذا لزم الأمر. لا ينبغي أن يكون لمعظم أشكال إخفاقات الحكومة وبعض أشكال إخفاقات السوق مثل فشل التنسيق تأثير كبير على عمليات هذه الشركات. يتطلب وجود إخفاقات السوق تدخل الدولة لتصحيحها على الرغم من أن الكثيرين قد يجادلون بأن تدخل الدولة سيجعل الأمور أسوأ. إن التدخل لتصحيح إخفاقات السوق من شأنه أن يسمح للاقتصاد بالوصول إلى نتيجة متفوقة اقتصاديا. في الوقت نفسه، حتى في حالة وجود إخفاقات في السوق، فإن فوائد تدخل الدولة يمكن أن يغطي على تكاليف التدخل.

كان أحد المكونات الرئيسية لسياسات المعجزات الآسيوية هو اندفاعها نحو القطاعات المتطورة تكنولوجياً، والتي كانت قطاعات تتجاوز ميزتها التنافسية في ذلك الوقت. يجادل الكثيرون بأن هذا يتعارض مع النظرية الاقتصادية موضحين السبب في أنه محكوم عليه بالفشل بشكل عام؛ حيث تفسر النظرية الاقتصادية أوهلاين (Heckscher-Ohlin)، حقيقة أنه لتطوير صناعات جديدة، يحتاج البلد إلى تجميع رأس المال والمعرفة في الصناعة. بمعنى آخر، يفترض أن التكنولوجيا متاحة مجانًا لكل بلد. إن العائق الوحيد أمام الاقتصادات النامية الأكثر فقراً، مثل الطائرات أو الروبوتات أو الأقمار الصناعية، هو نسبة رأس المال إلى العمل. أهمية الخبرة في عملية الحصول على التكنولوجيا، وحقيقة أن تراكم رأس المال بشكل عام لا يعني بالضرورة تطوير صناعات جديدة. وبعبارة أخرى، فإن النظرية تتجاهل العوامل الخارجية مثل التعلم بالممارسة أو العوامل الخارجية مثل (زيادة العائدات إلى الحجم) النابعة من التكتل.

كما ذكرنا سابقًا، كان التوجه نحو التصدير عنصرًا أساسيًا في السياسات الصناعية للمعجزات الآسيوية. لقد مثل هذا خروجًا كبيرًا عن سياسات استبدال الواردات المعتمدة في معظم الاقتصادات النامية في الستينيات والثمانينيات.

وفي الاقتصاد النامي النموذجي، كانت التعريفات والحواجز الأخرى أمام دخول الواردات تهدف للحد من المنافسة في السوق المحلي، وفي بعض الحالات احتكار عام، وليس هناك حافز محدد للتصدير أو التنافس في الأسواق الدولية. يمكن أن يؤدي هذا النموذج إلى بعض النجاحات بمعنى أن الإنتاج سيزيد، وسوف تتحسن القدرات. وهذا يتفق مع الأدلة التي ظهرت في السبعينيات والثمانينيات. ومع ذلك، مع مرور الوقت، فإن الافتقار للمنافسة يعني القليل من الاستثمار في البحث والتطوير والابتكار والاعتماد شبه الكلي على السلع الوسيطة المستوردة، خاصة التكنولوجيات عالية الأهمية. حتى إذا كانت هذه الشركات تدار بشكل جيد ولم يتم الاستيلاء عليها من قبل أفراد دون المستوى، فإنها تعتمد دائمًا على أنواع مختلفة من الحماية من المنافسة الدولية والمحلية وعلى الإعانات. في هذا السياق، ستكون الشركات المحلية معرضة بشكل كبير لمزيج من تخفيض قيمة العملة ورفع التعريفات لأنها ستشهد زيادة تكلفة مدخلاتها دون تحسن في قدرتها التنافسية في غياب الصادرات. على الرغم من أن اقتصاديات الكتب المدرسية تتوقع حدوث انتعاش في الصادرات بعد انخفاض القيمة، في الواقع، لا يمكن للشركات بدء التصدير بين عشية وضحاها. عندما يتم رفع هذه الحماية والدعم في نهاية المطاف، عادة في مرحلة التوحيد المالي أو الأزمة، يصبح نموذج التصنيع لاستبدال الواردات فجأة غير مستدام والسياسة الصناعية محكوما عليها في نهاية المطاف لتكون تجربة فاشلة.

نُجادل بأن نجاح المعجزات الآسيوية لم يكن مسألة حظ بل نتيجة تخطيط وروية عامة. على الرغم من عدم تعرضها للصدمات السلبية الحادة أو امتلاك بعض الخصائص الجوهرية للنجاح، إلا أن نموها المطرد كان نتيجة تنفيذ سياسة طموحة للتكنولوجيا والابتكار على مدار عقود حافظت على التكيف مع الظروف المتغيرة والانتقال إلى المستوى التالي من التطور. حددت الدولة أهدافًا طموحة، وتمكنت من التكيف بسرعة، وفرضت المساءلة عند دعمها للصناعات والشركات. نقول إنه أولاً: كانت «سياسة التكنولوجيا والابتكار» تعتمد على تدخل الدولة لتسهيل انتقال الشركات المحلية إلى قطاعات متطورة تتجاوز الميزة النسبية الحالية. ثانياً: لعب التوجه نحو التصدير منذ البداية دورًا رئيسيًا في الحفاظ على الضغوط التنافسية ودفع الشركات إلى الابتكار. تتناقض هذه الإستراتيجية مع إستراتيجيات تصنيع بدائل الاستيراد، والتي كانت سائدة حتى أواخر الثمانينيات بين الاقتصادات النامية، والتي أدت لعدم الكفاءة ونقص الابتكار والاعتماد المستمر على المدخلات الرئيسية المستوردة. وأخيرًا، تم فرض نظام السوق والمساءلة بطريقة صارمة.

ويفسر الكاتبان أنه لرفع درجات النجاح للاقتصادات فإنه يجب أن توافق مستويات الطموح مع السياسات المتبعة في الإجراء. فكلما أنتجت الشركات المحلية تكنولوجيا متقدمة، زادت فرص الحفاظ على نمو مرتفع. لتطبيق مبادئ سياسة التكنولوجيا والابتكار، يرى الكاتبان أن الدول تحتاج إلى تحديد الاستراتيجيات التي يمكن أن تستخدمها وفقًا لظروفها الخاصة. ويستلزم ذلك معالجة أسئلة مثل القطاعات المحددة التي يجب التركيز عليها، ونوع المؤسسات التي يجب إنشاؤها، وأنواع المهارات والبنية التحتية التي يجب اكتسابها.

- الكتاب: عودة السياسة التي لن يتم تسميتها: مبادئ السياسة الصناعية.
- المؤلفان: رضا شريف وفؤاد حسنوف.
- الناشر: صندوق النقد الدولي IMF، بالإنجليزية، ٢٠١٩.
- عدد الصفحات: ٧٩ صفحة.

*** كاتب عُماني**

ما بعدنا...!
أندريه غريشنوف

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

يُصَادف يوم الخامس عشر من شهر فبراير من كلّ عام الذكرى الثلاثين لانسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان؛ وكالعادة لا تمرُّ هذه الذكرى مرور الكرام دون أن تُوقظ جملة من الأسئلة والمحاور التي تدور حول حقيقة قرار الانسحاب، وهل جاء لغرض ما أطلق عليه حينها "الوحدة الواحدة" للقوات الوطنية المسلحة، أو أن الأمر يتعلق بالانسحاب من حرب اتسع نطاقها في ذلك البلد الآسيوي الوعر، وفرمت رحاها مجاميع بشرية هائلة من القوات الروسية ومن معها من قوات الجمهوريات السوفييتية؟ فهل كانت الضرورة مُلحَّة لقرار الانسحاب التاريخي عام ١٩٨٩، أم أن الوجود الروسي (السوفييتي) كان محتملا وقادرا على الصمود فترة أطول بكثير؟ وعادة ما تتمخض عن هذه الأسئلة وغيرها إصدارات جديدة تحاول أن تأتي بالأجوبة أو تستخلص النتائج في الموضوع الأفغاني.

ومن بين الأعمال التي صدرت هذا العام، كتاب يتمتع بخلفية سياسية، وينطلق من تجربة ميدانية طويلة، وينم عن عقلية تحيط بالموضوع الأفغاني من مختلف أوجهه وأبعاده؛ فمؤلفه أندريه غريشنوف هو صحفي ورئيس مكتب وكالة الأنباء الروسية «ريانوفوستي» في كابول لنحو ثلاثة عشر عاما، شهد فيها فصولا طويلة من الأحداث الجسام التي مزقت هذا البلد، كما تابع عن كثب صعود حركة طالبان واقتحامها العاصمة، وأجرى مقابلات مع الكثير من زعماء الحركة، واقتنص بعين كاميرته صورا للجنود الأمريكان تسجل طبيعة وجودهم العنيف وتوثق لتصرفاتهم في القرى الأفغانية. وقد حصر الكاتب مؤلفه على الفترة الزمنية التي تلت مغادرة القوات السوفييتية لأفغانستان، وهو ما يشير إليه عنوان الكتاب «ما بعدنا»؛ لذلك فإنَّ النظرة التي يسقطها الكاتب على الأحداث ما زالت حديثة وتنسحب على الواقع الأفغاني في وقتنا الراهن.

وفي حديثه عن قضايا أفغانستان الراهنة، يرى المؤلف أنَّ من واجبه التذكير بما بناه الاتحاد السوفييتي هناك، وما خلفه بعد انسحابه ليستفيد منه البلد وأهله. من بين ما يذكره في هذا الشأن: البنايات المقاومة للزلازل والمكونة من أربعة طوابق؛ حيث أقيمت تحت إشراف خبراء سوفييت، هذه المباني ما زالت قائمة وآمنة في سفوح الجبال. هناك أيضا المسح الجيولوجي للأراضي الأفغانية ونظام الإصلاح الزراعي الذي تبنته السلطات الأفغانية الموالية للاتحاد السوفييتي والحزب الشعبي الديمقراطي الأفغاني، والذي كان فحواه مصادرة الأرض من الأثرياء وتوزيعها على الفقراء وإنشاء التعاونيات الزراعية، ولكن المؤلف يستدرك سرده بالقول: «إلا أن ذلك الإصلاح واجه تحديا حقيقيا حيث شن عليه المجاهدون حملة دعائية أذاعوها بين الفلاحين مفادها أن الكفار ينتهكون التقاليد المتوارثة للمجتمع الأفغاني، وأن الأرض لا يمكن تملكها إلا بالوراثة أو الشراء، ثم قاموا بترهيب وقتل الفلاحين المتعاونين مع السلطات وحرق الآلات والجرارات التي حصلوا عليها من التعاونيات. وعندما وصلوا إلى سدة الحكم، لم يستطع هؤلاء الذين يتخذون من الدين سلطة شرعية لهم أن يمنحوا الشعب شيئا يعوّضهم عما كانوا يحصلون عليه في السابق، فبدأت السلطة الجديدة في ملء جيوبها بمال المخدرات وشرعوا ببناء البيوت الفاخرة واقتناء السيارات الرياضية ومراكمة الثروات الخاصة (...)، ويجدر بالذكر أن القائد الأفغاني خديداد، الذي قاتل جنباً إلى جنب مع الجنود السوفييت ضد المجاهدين، أعاد إحياء الحركة التعاونية في ولاية بغلان وقام بالإشراف عليها فكانت النتيجة أن أحرز الفلاحون حصادا قياسيا في منطقتهم (...) نستنتج من ذلك أنَّ الأفغان الذين لا يزالون يعيشون في القرن الرابع عشر حسب التقويم الإسلامي ليسوا بحاجة للديمقراطية الغربية، وإنما إلى الخبز والسلام في بلدهم الذي طالت معاناته» (ص: ١٧٠-١٧١).

علاوة على استنتاجاته، يسوق الصحفي شهادات جمعها من مواطنين أفغان عاديين أو غيرهم من الموظفين من ذوي الرتب العالية؛ فها هو عقيد يشغل وظيفة رئيس مركز شرطة في إحدى مقاطعات كابول يتحدث واصفا الوضع بقوله: «في ظل حكم الشيوعيين كان الحال أفضل بصورة لا تقارن عما هو الآن. كانت هنالك أوامر تأتينا لتنفيذها، وكان ثمة عمل للجميع، والأمن مستتب. ولا وجود لأي شيء من هذا اليوم. لقد كان للحياة معنى في زمن السوفييت». ويدعم الكاتب رأيه باستطلاع للرأي أجري في كابول أثبت أن غالبية السكان يتوقون للعيش في ظل النظام الشيوعي الذي أطاح به المجاهدون.

وبالمقابل، يلفت المؤلف الانتباه إلى حقيقة أنَّ المستوى التفاعلي الراهن بين الجمهورية الإسلامية وروسيا دون المستوى المأمول؛ وذلك على الرغم من المصالح المشتركة بينهما والمسائل الحاسمة التي تتطلب تقاسم الجهد بين الطرفين. ويُشير إلى أنه، وبالمقارنة مع الاتحاد السوفييتي، لا تستطيع روسيا اليوم تنفيذ إستراتيجية شاملة في علاقاتها مع أفغانستان، وعلاوة على ذلك، فإن روسيا الحديثة تفقد مراكز نفوذها في هذا البلد الذي كان رقما صعبا ومحوريا في فضاء الاتحاد السوفييتي.

ويسوق الكاتب أمثلة للتدليل على الفرص الضائعة لروسيا للاستثمار في أفغانستان، وافتقادها المبادرة لترسيخ مصالحها في هذا البلد الذي كان في الأمس القريب ضمن نطاقها الجيوسياسي، ومن بين تلك الأمثلة يقول: «في العام ١٩٧٣-١٩٧٤ قامت بعثة جيولوجية سوفييتية بالتنقيب في منطقة لوغار وأعدت صورا جيوفيزيائية لمنجم «أيناك» الذي يحتوي على احتياطيات من النحاس تزيد على ١١ مليون طن. ولكن تم توقيف عمل البعثة بسبب ثورة أبريل التي اشتعلت في أفغانستان، وصادف أن يقع المنجم المذكور ضمن المناطق المشتعلة، فنقلت جميع الوثائق الفنية المتعلقة بعمليات التنقيب إلى الجانب الأفغاني (...) وهكذا أصبحت رشوة صغيرة لحارس الوثائق كفيلة بتسريب معلومات تقدر بالمليارات، وهذا ما

حدث؛ حيث قام البريطانيون والصينيون، وبأقل الجهود والأسعار بالاستيلاء على وثائق الاكتشاف الجيولوجي المؤّقع بأسماء علماء سوفييت، بعدئذ، ومن دون قراءة الخطط الأفغانية لاستثمار المنجم الضخم، أو انتظار ما ستسفر عنه المناقصة الحكومية لاستخراج النحاس من الموقع، استبقوا كل شيء، بما فيه الواقع السياسي في أفغانستان، وباشروا في تحسين العلاقات مع زعيم الحكومة المعارضة في الحزب الإسلامي الأفغاني التي كان عناصرها ينشطون في منطقة لوغار. ووفقًا لمصادر موثوق بها، بدأت وفود الحكومة المعارضة بزيارة بكين بشكل متكرر حيث أجرت مباحثات سرية مع السلطات الصينية بشأن إمكانية ضمان وسائل الأمن في الموقع وما حوله (...) وعلى عكس الصينيين «الحكيمين» اعتمد الروس مرة أخرى على العلاقات الشخصية على أمل الفوز بتوقيع العقد. تقدمت شركة روسية بطلب للمشاركة في المناقصة وكانت واثقة من فوزها، ولكن وبحلول نهاية شهر مايو من عام ٢٠٠٨ وقعت وزارة المناجم في الجمهورية الإسلامية عقدًا مع شركة MCC الصينية لتطوير منجم «آيناك» للنحاس، الذي هو جزء من حزام النحاس الآسيوي. وهكذا تم إبعاد روسيا عن تنمية الموارد المعدنية الأفغانية» (٤٥-٤٧).

فصول أخرى من الكتاب كرسها المؤلف للروس الذين ارتبط مصيرهم بأفغانستان، بدءًا من أولئك الذين انضموا لحركة طالبان والذين تسبب اعتقالهم في ردود دولية مختلفة، وصولا لبطل الاتحاد السوفييتي الجنرال فالنتين فارنيكوف، الذي عندما عرف عن مرضه الخطير زار أفغانستان ليودع البلد الذي كان شاهدا على مأساته في أوائل الثمانينات. ويصف المؤلف كيف سافر هذا الجنرال إلى وادي بانجشير حيث جثا أمام قبر أمير الحرب أحمد شاه مسعود.

يرسم المؤلف صورة للمجتمع الأفغاني اليوم مثيرة للاهتمام؛ حيث يُقارنه بالمجتمع الروسي في التسعينيات من القرن الماضي، وذلك برصد جميع الانتهاكات التي عانى منها المجتمع الروسي آنذاك، والأعمال غير القانونية التي عمت البلاد، وعمليات الخطف للحصول على الفدية وغيرها من الممارسات التي شاعت في الحياة الروسية في الفترة التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفييتي ودخول البلد في نفق مظلم. وقد بادر المؤلف بجمع ملف فريد يشمل حوادث الجرائم الجنائية والاقتصادية في أفغانستان، حيث

سُجلت أهم الأحداث في العاصمة والمناطق المجاورة لها، وذلك بفصلها عن الجرائم العسكرية والسياسية وتلك التي ترتكب باسم الدين. فالغالبية العظمى من المتابعين ينظرون إلى القضية الأفغانية باعتبارها ثقبا أسود تختفي فيه المليارات، وفي كل مكان ثمة انفجارات وخطف، والمتعصبون الدينيون يقتلون الجميع، لكنها بالنسبة للمختصين -ومن بينهم مؤلف هذا الكتاب- فإن هذه الصورة، ومهما اتخذت من أبعاد وحشية مختلفة، إلا أنها تعكس مرحلة كاملة للتحول المجتمعي الأفغاني في ظل النظام الرأسمالي العالمي المتوحش، وهي الصورة نفسها التي وقعت فيها روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي.

وفي حديثه عن الأهوال التي تشهدها أفغانستان المعاصرة، يرسم أندريه غريشنوف صورة للجنون العام الذي لم يصب الأفغان أنفسهم وحسب، وإنما اكتسح الجنود الأمريكيين الذين يخدمون في هذا البلد. يقول المؤلف: «اعترف الرقيب في الجيش الأمريكي كيلفن جيبس وهو أمام المحكمة أنه، هو وعدة جنود معه، ارتكبوا عملية ذبح رهيبة في حق سكان ولاية قندهار المسالمين وذلك من أجل «رفع الهمة»، فقاموا بقطع أصابع ضحاياهم ونزع أسنانهم وتشويه جثثهم. وبدون أي تحرج أو محاولة لإخفاء فعلتهم أو حتى تبريرها، أطلق الجنود على أنفسهم «فريق القتلة». هل حدث شيء ما للجنود الأمريكيين بالقرب من قندهار حوّلهم إلى وحوش أو أن ذلك الشيء قد حدث لهم قبل أن يأتوا إلى أفغانستان؟» يترك المؤلف هذا السؤال دون إجابة.

وليست قائمة الخسائر الثقافية لأفغانستان التي قام بوضعها أندريه غريشنوف بأقل فداحة من بقية الجرائم الأخرى. ومن ضمن ما ورد في القائمة هناك مقابر أسرة تيمور لنك في مدينة هرات وما تعرضت له من تخريب ونهب. يقول غريشنوف: «بالنسبة لي شخصيا فقد مثل لي هذا الحادث صدمة حقيقية، ففي المعارك التي دارت في هيرات عام ١٩٨٤ أتيحت لي الفرصة لزيارة هذه المقابر ولمس أغطيتها (...) خلال حربنا لم يتجرأ أحد على التعرض بسوء لهذه المقابر، ولكن لم يعد ثمة شيء مقدس في زمن طالبان».

وبكونه صحفيا لم يسع غريشنوف تجاوز موضوع حساس آخر كالتغيرات في وضعية الإعلام الأفغاني، فيسوق في كتابه رزمة من التحركات والقرارات التي أقرتها جهات رسمية، ونتجت عن تقييد عمل الصحفيين والفنانين، المحليين والأجانب، مثل حظر برلمان أفغانستان الجولات الفنية للفنانين الأجانب في عموم البلاد ومنع بيع تسجيلاتهم وإيقاف المسلسلات التليفزيونية الهندية فضلا عن إعلانات البنوك الأجنبية المتعلقة بإصدار الفائدة على ودائع السكان بسبب المعايير الشرعية. لكن الوضع كان ولا يزال غامضا كما يراه غريشنوف، فالتليفزيون في أفغانستان خاص في معظمه وبإمكانه الالتفاف على مثل هذه القرارات أو تجاهلها!

ومن بين الملامح الكئيبة الأخرى في الصورة التي رسمها غريشنوف لأفغانستان هناك عمليات الخصخصة الجائرة والدمار الذي لحق بالقطاع الصناعي والمالي، كالذي حدث ببنك كابول: أكبر مؤسسة مالية في البلاد، حيث جرت فيه عمليات تزوير يصفها المؤلف بتزوير القرن، وهناك الوفاة المفاجأة لمدير شركة الطيران الأفغانية «أريانا» زابيلي إسماطي، الذي لم يُقتل على يد المجاهدين أو طالبان، وإنما تمت تصفيته بسبب وقفته الصلبة ضد قرار الخصخصة المشبوه. ويقدم الكاتب العديد من الحقائق الأخرى التي أدت إلى التدهور المعيشي والفقر الذي يعيشه هذا البلد الجميل.

- الكتاب: «ما بعدنا».
- المؤلف: أندريه غريشنوف.
- الناشر: إكسيمو/ موسكو ٢٠١٩، بالروسية.
- عدد الصفحات: ٤٨٠ صفحة.

*** أكاديمية ومستعربة روسية**

تذكر بودريار
سيرج لاتوش

سعيد بوكرامي *

ينتمي جان بودريار (١٩٢٩-٢٠٠٧) إلى جيل النظرية الفرنسية، الجيل الذي شغل الناس و ملأ المشهد الثقافي عطاء معرفيا وجدالا فكريا امتدّ بين مرحلة ما بعد الماركسية وما بعد الحداثة. و على عكس الفلاسفة وعلماء الاجتماع المعاصرين، كان لبودريار مسار غير اعتيادي ميز إنتاجه المعرفي المتنوع. فقد اخترق ببراعة علم الاجتماع واللغويات وعلم الآثار والتحليل النفسي وعلم الإناسة والفلسفة، بخفة مفاهيمية حيّرت الكثيرين. بما في ذلك صاحب الكتاب سيرج لاتوش: " تذكر بودريار". لازم لاتوش بودريار حتى عام ١٩٧٦، قبل أن ينفصلا عن بعضهما البعض. يعترف لاتوش منذ بداية كتابه بالغموض الذي يحوم حول بودريار، حيث يتجلى على الأقل في فكره وكتاباته، ناهيك عن تمرده على القوالب الفكرية والسياسية الجاهزة، التي لا يمكن حصرها داخل نظام محدد.

يمكن إرجاع الاصرار على نسيان بودريار في فرنسا إلى عدم امتثاله للوصاية المنهجية الأكاديمية، ولكن ذلك سيكون بمثابة استسلام للذهنية المتحكمة في التفكير الأكاديمي التي لم تقبل حرية بودريار في النقد والانتقاد. أن نتذكر أن بودريار اليوم هو بمثابة تقدير للوضوح الشديد الذي مارسه مؤلف كتاب "ذكريات رائعة" طوال حياته. الوضوح الذي جعله يعلن ويحلل، وينتقد منذ سبعينيات القرن العشرين، مظاهر عالمنا المعاصر المتمثلة في: الإرهاب، الاستهلاك المفرط، والتصنيع العام وانتصار الافتراضي على الواقعي، هيمنة الطيفي على الحقيقي، والألعاب الإعلامية...

يروي سيرج لاتوش بدقة تاريخية ومعرفية محطات من حياة بودريار المعرفية ذات الطابع المضطرب و المتمرد والمعارض، بدءا بمرحلة التعلم ونماذجه الثقافية والمعرفية وتأثره الكبير ب(رولان بارث)، متوقفا عند محطة بداية الكتابة التي سيكتسب خلالها سمعة ثقافية وطنية، سرعان ما ستصبح شهرة عالمية. ومن خلال أعماله القديرة والمثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: نظام الأشياء (١٩٦٨) ومجتمع الاستهلاك: الأساطير والبنى (١٩٧٠) ومرآة الإنتاج (١٩٧٣) والتبديل الرمزي والموت (١٩٧٦) وإغراء (١٩٧٩) وفي ظلال الأغلبية الصامتة (١٩٨٢) واستراتيجيات قاتلة (١٩٨٣) وذكريات جميلة (١٩٨٧) وحرب الخليج لم تقع (١٩٩١) ووهم النهاية (١٩٩٢) والجريمة الكاملة (١٩٩٥) وكلمات السر (٢٠٠٠) والعناصر المفردة للعمارة (٢٠٠٠) وروح الإرهاب: وسقوط البرجين التوأمين (٢٠٠٢). هذه الاعمال الفذة صارت مع الوقت أقل أكاديمية، ثم ينهي لاتوش كتابه بالمرحلته الأخيرة قبل وفاة بودريار في ٦ مارس ٢٠٠٧ مستعرضا لأهم سجالاته في صحيفتي الحرية «ليبيراسيون» والعالم «لوموند» الفرنسيتين اللتين كانتا بمثابة أرضية خصبة لانتقادات ونقاشات ساخنة ومستفيضة أبرزت بجلاء بصمات بودريار الفكرية المرتبطة بموضاعته الأثيرة.

منذ البداية كتب سيرج لاتوش عن جان بودريار (١٩٢٩-٢٠٠٧) أنه «لم يشيد نظاما (فلسفيا)، أو على الأقل نشر فكره حول مجموعة من المفاهيم العملية «(ص ١٥)، والتي يمكن تفسير نجاحها بسوء الفهم الفكري والذي رافق نشرها في جميع أنحاء العالم العديد من الجدالات، يلاحظ الكاتب أنه «ليس من السهل جعل كل صيغة تلتصق ببعضها البعض. «(ص ١٥٣). فيما يتعلق بتأملات بودريار، يضيف أن التحليل «لا يزال مفتوحًا، ويمكننا اللعب، حتى وإن كانت قواعد اللعبة غير واضحة جدًا» (ص. ١٦٨).

لا تختزل هذه الدراسة في التفسير الدقيق لمجموعة من الكتب، ولكن المؤلف ينجز «دراسة، بروح السيرة الفكرية» (ص ٢٨)، تمزج بين الحياة والمنجز الفكري. بدلاً من الإصرار على اختراق المعنى النهائي لتفكير متعدد وغامض يكشف تماسكه واستنزافه لنفسه داخل فضاء النص، يقترح سيرج لاتوش مجموعة من المفاتيح لاستيعاب فرادة فكر نضج في سياقات معينة وتفتق من خلال بودريار المتعدد والمختلف.

يعتبر سيرج لاتوش التفكير في الأشياء أحد الموضوعات الرئيسية التي بنيت عليها كتابات بودريار (ص ٢٠). ونظرا لشعور بودريار بالقلق إزاء معانيها، يفكر هذا الأخير في طرائق إنتاجها. هذا التحول يدفعه إلى انتقاد وتجاوز المنهج الماركسي الذي يتميز بنوع من الحتمية الاقتصادية. إذا كان ماركس قد قدم نقدًا جذريًا للاقتصاد السياسي، محاولا تطويره من خلال تأييد افتراضاته الفكرية، كما يقول بودريار في كتابه «مرآة الإنتاج» وخاصة مع مبدأ الإغراء، الذي يقترحه هذا الأخير ويعتبره سيرج لاتوش «نموذجًا بديلاً» (ص ١٤٤).

تعرف سيرج لاتوش على بودريار خلال سنوات السبعينيات، قبل أن يبتعد عن الرجل وأعماله. كانت العلاقة بينهما أكاديمية محضة. كان حينذاك صاحب كتاب «مجتمع الاستهلاك» مساعدا لهنري ليفبفر (١٩٠١-١٩٩١) في قسم علم الاجتماع بجامعة نانتير. في هذا الكتاب الريادي، وهو الأكثر شهرة بين كتبه جميعها، يسهب بودريار في تحليل سيميولوجي للاستهلاك الذي بدأه في كتاب «نظام الأشياء» تمشيا مع تحليلات رولان بارت (١٩١٥-١٩٨٠) للأساطير، التي نشرت قبل بضع سنوات، يجادل بودريار بأن «قيمة استخدام» الأشياء، مرتبطة بفائدتها الوظيفية، وتكون أقل من «قيمتها المعنوية»، والمقصود هنا أهميتها الاجتماعية. بالإضافة إلى تنظيم نوع من الاندماج الرمزي لممارسات الاستهلاك في هذا المجتمع، الذي يرعى مشهد الإسراف والرخاء والوفرة، مما يؤدي إلى الإحباط الدائم للمستهلكين.

من خلال قراءة دراسته، نفهم بوضوح أن لاتوش اهتم بهذا الجانب من العمل، الذي قام به سيرج بودريار، مؤلف كتاب الخروج من المجتمع الاستهلاكي وتوليف حديث عن تدهور النمو، هو الأقرب. بالنسبة له، تبدو الحساسية السياسية لبودريار ذات طابع يساري واضح وتتجلى في تحليلاته للاستهلاك كممارسة إلزامية وغريبة، وكذلك تأملاته حول العمران والهندسة

المعمارية في مجلة يوتوبيا ((١٩٦٧-١٩٦٨، يرجع صدى المثل العليا الغاضبة من الظواهر الحديثة المصطنعة، المصممة على إحداث ثورة في الحياة اليومية بواسطة سلسلة من الأفكار المنقذة والمحرّرة المعتمدة بمعنى واسع، وبطريقة شاعرية، على الإغراء كنوع من المبادئ التي تقرب البشر من الأشياء والأشياء من الناس. ويعدّ ارتباط مفهوم المظهر والغموض الأساس لما يسميه بودريار «التبادل الرمزي». المرتبط بدوره بفكرة الإسراف والنفقات، المستوحاة من قراءات مارسيل موس (١٨٧٢-١٩٥٠) وجورج باتاي (١٨٩٧-١٩٦٢)، وهذا النوع من التفاعل يتعارض مع مبادئ علاقة السوق. وهو الوحيد، حسب بودريار، القادر على معارضة المنطق. ولكن مع الإغراء، يحدد سيرج لاتوش أيضًا نقطة تحول هامة، بحيث تنعكس الأفكار التي يحتوي عليها العمل بأسلوب إضماري واستعاري بعيدًا عن قواعد الكتابة الأكاديمية. إذا كان منهجه دفع عددا من الأكاديميين الفرنسيين إلى التبرّم منها، فإنه سيجد خارج فرنسا انجذابا كبيرا وجمهورا عريضا، أكبر من أي وقت مضى، خاصة في الولايات المتحدة.

ولأنها تصف «انتصار المحاكاة في الفضاء الاجتماعي الذي أصبح منحرفًا بشكل تدريجي في المحاكاة الدعائية» (ص. ١٢٨)، يعتبر سيرج لاتوش أن تأملات بودريار حول المجتمع الاستهلاكي هي نقطة الانطلاق لأسئلته عن الواقع. من خلال حشده للمفاهيم التي اعتبرت أكثر تطرفًا في الثمانينيات والتسعينيات، يشير بودريار إلى ما يسميه المؤلف «تصنيع العالم» (ص ١٦٠ وما يليها). وهكذا يبدو التحول إلى العصر «الافتراضي» بمثابة المرحلة الأخيرة من عملية تتخللها مراحل «رمزية»، و «محاكاتية» و«تصنيعية» في نهايتها، يتبلور «عارض مصطنع هائل، عبارة عن مصفوفة، تؤخذ على أساس أنها الواقع»، كما يشير لودوفيك ليونيلي. ويؤكد ذلك بودريار في عام ١٩٩١، فقد ساد شعور بأن حرب الخليج لم تحدث، ويعود السبب إلى الاعتقاد أن ما يبدو قد حدث وقع فقط على شاشات التلفزيون، مصحوبا بتعليقات مراسلي الوكالات الاخبارية التلفزيون. وحسب دوغلاس كيلنر، فإنّ هذا الجانب من الظاهرة بدأ ينمو منذ الثمانينيات وهو ما اصطلح عليه فيما بعد بـ«الحتمية التكنولوجية». في هذا العالم الافتراضي، تبرز «الفظاعة» كنوع من أنواع عدوى الاضطرابات. إن تأملات بودريار، ذلك القارئ النهم لقصص الخيال العلمي (هذه المعلومة أعرفها عن طريق سيرج لاتوش، لأول مرة) وهي مشحونة هنا بفعل الإيقاظ تقريبا

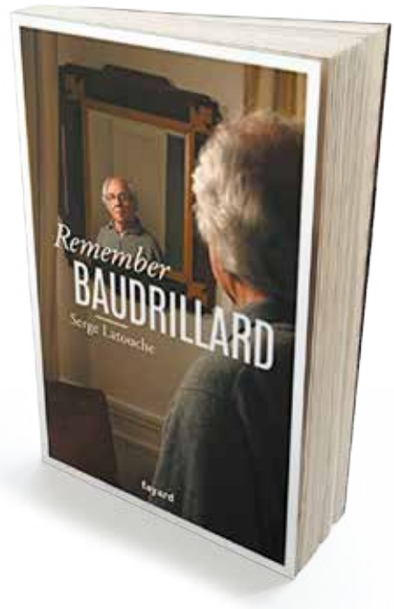

بينما تعليقات الخبير الاقتصادي يتردد صداها: ينتهي الواقع إلى التلاشي «وراء آليات الخوارزميات و طريقة عمل الآلة الضخمة أو رمز الحمض النووي. عند هذه النقطة يصبح النظام فيروسي: فيروس إرهابي، فيروس وبائي، فيروس إلكتروني، فيروس سوق الأوراق المالية»(انظر الصفحة ١٦٥ والصفحة ١٩١). تُحمل هذه التحليلات من خلال نثر يتميز لغة مفهومة ورؤيوية، يندم مؤلفها أحيانًا على أنها تصل إلى درجة التبسيط و المانوية. وفي هذا السياق يجب قراءة بودريار بلغته الفرنسية وليس عن طريق الترجمات العربية التي لم تصل في معظمها إلى المستوى الساحر والمثير للغته الفرنسية. كما أن هذه اللغة تطورت في سياق ما بعد الحداثة من «اختصار المراجع القوية» (ص ١٨٧) ويبدو أنها تحافظ عند بودريار على نظرة يائسة وعدمية تجاه العالم. إن أفكاره حول هجمات مركز التجارة العالمي، التي تربط بين العنف الإرهابي والعولمة الليبرالية، هي الفكرة الأكثر إثارة للجدل وقد أسالت مدادا كثيرا معارضا ولوما شديدا لبودريار. «أعمال المؤلف كلها تدور في نهاية المطاف حول خيبة الأمل في الحداثة وبين التمرد الداخلي والاستكانة الساخرة» (ص٤٠)، كما يقول سيرج لاتوش. وبدلا من ثبات النظرة السياسية، يحدد المؤلف بشكل ملحوظ أن المسار الفكري لبودريار تميّز بديمومة متجددة للفكر والتلاعب بعالم الأفكار إلى درجة يتقمص فيها بودريار «دور المحتال، هذا الفكاهي الموجود في الأساطير جميعها»...«الذي يجد متعته القصوى في إحباط اللعبة التي أنشأتها الآلهة الجادة» (٢٥٤).

يكتب بودريار في كتابه «شفافية الشر»: «تتمثل الوظيفة الفكرية الحقيقية فقط، في التلاعب بالتناقض، والسخرية، والمعارضة، والثغرة، والانعكاس، والتي ستظل دائمًا متمردة على القانون والبداهة». طوال حياته، كان بودريار مخلصًا لمبادئ الفلسفة وعلم الدماغ وعلوم «الحلول الخيالية» التي ابتكرها ألفريد جاري (١٨٧٣-١٩٠٧). محددا في الوقت نفسه أهمية هذا السياق الروحي والفكري، يقدم سيرج لاتوش بلا شك أحد مفاتيح قراءة بودريار الأكثر ارتباطا ب: هذا المنهج في أعماله، لهذا يدعو إلى قراءته بالطريقة نفسها التي كتب بها مؤلفها، مع فسحة تأمل مستفز ومسافة ذكية تسمح لنا بالكشف عن كل تماسكها وأهميتها، بعيدًا عن قواعد الجدل الأكاديمي ... يختلط اللعب بالمعنى واللعب باللغة. يكرس المؤلف الفصل الأخير من دراسته«للاستمتاع الشعري باللغة» (ص٢٤١ و ص٢٥١) عند بودريار كما لو أن لاتوش يبرهن على أن أسلوبه هو الذي يميز أعماله الفريدة ويمنحها مميزاتها الخاصة ببودريار دون سواه.

ورغم غموض وتجاوزات دراساته، يبقى بودريار دقيقًا، تمامًا فحتى في انفصاله الساخر ومفارقاته يوجّه أسئلة جدّية ومستفزة لتوليد القلق الفكري المستمر. بطبيعة الحال، الواقع لم يختف، ولن يختف أبداً. في حين أن الانتقال الفيروسي للأخبار المزيفة في زمن ما بعد الحداثة، يشبه السيناريوهات الهوليوودية للدعاية الداعشية، التي يبدو أنها تطمس الحدود بين الحقيقة والزيف، والحقيقي والافتراضي، وهنا يؤكد سيرج لاتوش أن أعمال بودريار «تجعل ضوضاء العالم مسموعا صداها» (ص ٢٠٠)، معبرا عن أسفه لأنها لم يعد من المفيد التفكير فيها. و يبدو عنوان كتابه بمثابة تحية تقدير وإحياء و تذكير وتذكر لفكر بودريار وشخصيته المجددة والخلاقة التي حولت التفكير من الإنسان إلى التفكير في الأشياء التي صارت تدريجيا تتحكم في الإنسان وتحولاته، وبذلك نقل بودريار الدرس الفكري من فلسفة الإنسان إلى فلسفة الأشياء.

الكتاب: تذكر بودريار
المؤلف: سيرج لاتوش
الناشر: دار فيارد. باريس. فرنسا.
سنة النشر: ٢٠١٩
عدد الصفحات: ٣٠٤
اللغة الفرنسية

*** كاتب مغربي**

المرتد. التحول من المسيحية إلى الإسلام في عصر العلمنة والإرهاب يورام فان كلافِرن

عبدالرحمن السليمان *

هذا الكتاب عبارة عن وثيقة مهمة يوثق فيها الكاتب عملية تحوله من النصرانية إلى الإسلام. لا يبرر مثل هذا التحول، بحد ذاته، تلك الأهمية الكبيرة التي اكتسبها تحول الكاتب، الهولندي يورام فان كلافررن، ولا الضجة التي أثارها صدور الكتاب. فالخارجون من هذا الدين والداخلون في دين آخر أصبحوا لا يعدون ولا يحصون في زماننا هذا. إلا أنّ هذا الكتاب يكتسب أهميته من أمرين اثنين مهمين. الأول: لأن الكاتب كان سياسيًا هولنديًا من أقصى اليمين المتطرف، وكان الرجل الثاني في (حزب الحرية) اليميني المتطرف الذي يرأسه السياسي اليميني الشعبوي خيرت فيلدرز (Geert Wilders)، وكان يدعو في البرلمان إلى حظر القرآن الكريم في هولندا وإلى التضييق على المسلمين فيها، فشارك في كل حملات الحزب على المسلمين، ومنها إنتاج فلم (فتنة) المسيء للإسلام عمومًا وللنبي محمد خصوصًا. والثاني: أن الكاتب مثقف ثقافة عالية نشأ في بيئة مسيحية بروتستانتية محافظة ومتشبع بمرجعية الكتابة للديانتين اليهودية والنصرانية ويتمتع بخلفية ثقافية واسعة، وأنه كان يوظف كل طاقاته الفكرية والمعرفية من أجل محاربة الإسلام في هولندا وإغلاق المساجد والمؤسسات الإسلامية فيها.

يتكون الكتاب من مقدمة واثني عشر فصلاً كتبت بلغة جميلة وبسيطة وعميقة في آن واحد. يستهل الكاتب مقدمته بالآية العاشرة من سورة الأنبياء (لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، ويبدأ كل فصل منه بآية أو حديث أو قول للمسيح أو الرسل أو لفيلسوف أو كاتب معروف. ويبدأ مقدمته بالقول إن «العقل يعبّر في الموروث العقلاني عما هو غير عاطفي، وإن كثيرًا من الناس لا يربطون العقل بموضوع الدين أصلاً». ثم يؤكد في الوقت نفسه على أن رحلته في البحث عن الله «لم تخلُ من العاطفة، لكنها كانت رحلة عقلانية» في المقام الأول، ذلك أنّ «البحث في المصادر وتحليل المسائل الجوهرية بهدف فهم ما لم يكن يُفهم بسبب العاطفة» كانا الباعث الأول والأخير في رحلته الفكرية التي أدت به إلى اعتناق الإسلام. ثم يسرد الكاتب في كتابه المثير هذا أنه كان تفرّغ لكتابة كتاب نقدي حول الإسلام، وأنه من أجل ذلك عكف على دراسة عميقة لمصادر الإسلام الأولية بهدف إظهاره «على حقيقته» التي كان يرى فيها خطرًا على المجتمع الهولندي والعالم. إلا أنه - أثناء الدراسة والكتابة - اصطدم بأسئلة جوهرية مثل: هل يوجد ربٌّ لهذا الكون حقًا؟ وهل إلهُ القرآن هو ذاته إلهُ الكتاب المقدس؟ وهل يدعو الإسلام المسلمين إلى كره غير المسلمين وإلى اضطهاد المرأة؟ وكيف اكتسب الكاتب تلك النظرة السلبية عن الإسلام؟ وأي صراع عاطفي واجتماعي نشأ في داخله في رحلته الفكرية هذه؟.

ثم يستحضر الكاتب أن التحاقه بالجامعة لدراسة اللاهوت كان في الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١، وهو تاريخ وقوع هجمات برجي التجارة العالمية في نيويورك. ويضيف: «إنه يوم فظيع في التاريخ المعاصر يحدد النظرة إلى الإسلام» بطريقة مباشرة، وأن «هجمات مدريد واغتيال المخرج الهولندي تيو فان خوخ (Theo van Gogh) وعملية احتجاز الرهائن في مدرسة بيسلان في روسيا» - وكلها أحداث وقعت سنة ٢٠٠٤ - إنما «وقعت في أثناء دراسته في الجامعة»، مما جعله يكون نظرة سلبية جدًا عن الإسلام. وزادت الأحداث التالية - وأهمها ظهور تنظيم داعش والجرائم التي ارتكبها وكذلك الهجمات الإرهابية في الغرب - تلك النظرة سلبيةً، وكوّنت لديه صورة جد قاتمة عن الإسلام، أراد أن يسطرها في كتاب ويوثق لها من المصادر الإسلامية نفسها، فعكف على دراستها لهذا الهدف.

يعالج الكاتب في الفصول الأولى من الكتاب مواضيع فارقة كالعَلمانية في الغرب التي أدت إلى إخراج الدين من الحياة العامة إخراجًا كليًا. فيقارن نسبة التدين لدى الهولنديين سنة ١٩٠٠ (٩٨ بالمائة) بنسبتها سنة ٢٠١٥ (٣٠ بالمائة) لا يزور ٨٢ بالمائة منهم الكنيسة. ويستحضر الأبحاث العلمية التي تشير نتائجها إلى أن نصف الهولنديين لا يؤمن بوجود إله أصلاً، ويضيف بأن «للعَلمنة المستمرة تأثير سلبي على الثقافة والمجتمع» إذ تُفرِّغُ مجالات اجتماعية كثيرة من التأثير التاريخي للديانة المسيحية «لتصبح مجالات مستقلة تتطور بمعزل عن السياق الثقافي العام كالأدب والسينما والموسيقى والتعليم والصحافة والديموقراطية والمشاركة والفردانية ودور الدولة والمخدرات والجنس والسياسة والزواج». لقد «تآكل» العنصر الرابط بين هذا المجالات، ويقصد به الديانة النصرانية. وأدى هذا التراجع للدين «إلى طرح السؤال الوجودي: من نحن بصفتنا مجتمعًا؟» وكذلك «إلى استيراد التقدميين سياسة الهُوية من الولايات المتحدة»، وأخيرًا «إلى اعتبار ما بعد الحداثيين الحقيقةَ المؤسِّسةَ للحضارة، أمرًا نسبيًا». والنتيجة الحتمية لهذا التطور هو «حالة فردية وتجربة غير مختبرة في التاريخ الإنساني، أي: التطوير العضوي لحضارة بدون الله». وفي الحقيقة أدت هذه الحالة إلى فراغ روحي غير مسبوق في الغرب، أصبحت الحياة معه فعلاً ماديًا مطلقًا من الولادة إلى الموت.

ثم يتوقف الكاتب عند مقولة نيتشة الشهيرة «موت الإله»، ويسرد البراهين الكونية والدينية والأخلاقية الدالة على وجود الإله، ويستهل الفصل الذي يستحضر فيه البراهين التقليدية الدالة على وجود الإله بقول للفيلسوف الوجودي بول سارتر: «لا أنكر أني لا أؤمن بوجود الله، كما لا أستطيع أن أنسى بأن جميع وجودي يبحث بشدة عن الله». ويقارن بين مفهوم الإله المعبود بحق في الديانات السماوية مع التركيز على طبيعة الإله في الديانة النصرانية وفي الإسلام على الأخص. ويتوقف عند عقيدة التثليث في النصرانية ويرى أن الإله المعبود بحق قد عرف البشرية بذاته العلية من خلال عيسى الذي يُقدم على أنه الإله-الإنسان. ويتساءل بشأن هذه العقيدة: «هل كان مفهوم الإله-الإنسان الذي نعرفه اليوم هو نفسه مفهوم الإله الذي كان الجيل الأول من النصارى يعرفه؟». ثم يأخذ الكاتب القارئ معه في جولة تاريخية يستعرض من خلالها المجامع المسكونية التي عقدها أوائل النصارى في القرنين الرابع والخامس خصوصًا في القسطنطينية (سنة ٣٨١) وفي خلقيدونية (سنة ٤٥١). لقد أدت قرارات المجمع الأخير إلى انشقاق الكنائس الشرقية (القبطية والأرمنية والسريانية) عن الكنيستين البيزنطية والرومانية بسبب عقيدة التثليث الصوفية التي حدّها القديس أغسطين بقوله: «إن الله جَميعٌ مُفرَدٌ، ومُفرَدٌ جَميع». ويرى الكاتب أن هذا الحد للإله المعبود بحق أشبه باللغز الذي يستعصي على الفهم ويضيف: «إن الدليل على استعصاء هذه الفكرة على الفهم أن الكنيسة احتاجت إلى قرون عديدة كي تبرهن بطريقة تقريرية على تفسير النصوص الإنجيلية المتعلقة بالعلاقة بين الإله الأب وعيسى الابن والروح القدس». وهذا ما جعل البطارقة المشاركين في المجامع المسكونية التي انعقدت في القرون المسيحية الأولى يختلفون بشأنها، الشيء الذي أدى إلى نشوء فرق نصرانية كثيرة كاليعاقبة القائلين باتحاد الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية في بوتقة واحدة كاتحاد الماء بالخمر في زجاجة واحدة ليشكلا عنصرًا واحدا؛ أو النساطرة القائلين باستقلال الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية مثل استقلال الماء والزيت عندما يوضعان في زجاجة واحدة، فيبقيان عنصرين مستقلين. ويعزو في النهاية الفكرة التي يمكن من خلالها قبول أن يكون لإنسان ما أب أو أم من جنس الآلهة إلى الثقافتين اليونانية والهيلينية التي تأثر بها اليهود أيضًا حسب رأي الكاتب.

ثم يتحدث الكاتب عن مرحلة الشك لديه ويستعرض في فصل تال فكرة الخطيئة الأزلية في العقيدة النصرانية بعد عصيان آدم وحواء الأوامر الإلهية وأكلهما من الشجرة كما جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين، وتوارثَ الأجيال لهذه الخطيئة لأن العقيدة النصرانية تقرر أن كل مولود يرث هذه الخطيئة الأزلية عند ولادته. «باستثناء عيسى لأن أباه ليس إنسانًا ورث الخطيئة الأزلية»، لذلك كان عيسى من القداسة بمكان بحيث استطاع أن يفدي العالم وخطاياه بالقربان الذي قدمه من أجل ذلك، وهو نفسُه - «لذلك سمي المخلص». ويستطرد الكاتب: «أعاني منذ نعومة أظافري من هذه العقدة اللاهوتية التي اقتضت أن يضحي عيسى بدمه من أجل فداء خطايا العالم». ويمضي في شكه قائلا: «تلقي هذه العقدة اللاهوتية الضوء على صفات

الإله وعلى منطق القراءة والتفسير لقصة الخطيئة الأزلية كما جاءت في سفر التكوين في التوراة»، وتفرض علينا الأسئلة التالية: «لماذا لم يستطع الله أن يغفر هذه الخطيئة بدون التضحية بابنه»؟ «وهل غُفرت خطايا أشخاص عاشوا قبل عيسى مثل آدم وإبراهيم ونوح» أم لا؟ وإذا كانت خطايا هؤلاء الأنبياء السابقين لظهور عيسى قد غُفرت، «فلم كان هذا الفداء للخطايا بدم الابن ضروريًا في مرحلة متأخرة من مراحل التاريخ»؟ ويستنتج في آخر الفصل بأنه بالإضافة إلى صعوبة استيعاب عقيدة التثليث فكريًا، فإن الأسئلة المطروحة أعلاه - بالإضافة إلى أسئلة أخرى - «قد أصبحت تشكل عائقًا حقيقيًا يحول بينه وبين قبول مفهوم الإله في الديانة النصرانية». ويختم الكاتب فصله هذا بالقول إن الإلحاد لم يشكل جوابًا مفحمًا على أسئلته المتعلقة بالحقيقة، لذلك لم يفكر في أن يصبح ملحدًا. كما لم تشكل الديانة اليهودية - التي يعرفها جيدًا وكان يتقبلها أكثر من الإسلام - بديلاً له عن النصرانية بسبب تلازم الديانة اليهودية مع النصرانية تلازمًا يَصعب تفكيكه في خلفيته الدينية المؤسسة على التقليد اليهودي المسيحي. «ومع ذلك فإن كرهي للإسلام الذي نشأ وتراكم مع السنين لم يكن حائلاً دون النظر من جديد في هذا الدين الذي يتبوأ عيسى فيه منزلة رفيعة لأنه فيه رسول الله» وكلمته وروحه، وينتهي بالقول إن غياب عقيدة التثليث في الإسلام فرضت عليه أن ينظر من جديد وبعمق في هذا الدين الذي يحاربه.

يعالج الكاتب في فصل تالٍ مفهوم الإله المعبود بحق في الإسلام، ويستهل الفصل بالترجمة الهولندية للآية (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم) (سورة البقرة، الآية ١٦٣) ويطرح أن الإيمان بإله واحد خلق السماوات والأرض وما بينهما أساسُ الإسلام وأن هذا هو التوحيد الحقيقي. ثم يتوقف عند صفات الله وأسمائه الحسنى ويقول إنه «على الرغم من أن مفهوم الإله المعبود بحق في الإسلام، الذي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، قد يوحي بشيء من المساحة بينه وبين المخلوقين» خصوصًا بالنسبة إلى المسيحيين، «فإن الإسلام يؤكد في الوقت نفسه على أن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد» (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (سورة ق، الآية ١٦). ويستنتج بأن صورة الإله المعبود بحق في الإسلام «مضطردة تجريديًا مع ذاتها وغير متناقضة» وأنها - «وياللمفارقة» يضيف الكاتب - «أقرب بكثير إلى الرسالة التي يرسلها المسيح إلينا حسب إنجيل مرقص (الإصحاح ١٢ الآية ٣٠) منها إلى مفهوم التثليث في العقيدة النصرانية: (وَتُحِبُّ ،لِرَبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ)». ويقول مقارنًا مفهوم الإله في الإسلام بمفهوم التثليث في النصرانية بأن مفهوم الإله في الإسلام «ليس سرًا لاهوتيًا غير قابل للفهم بل مفهوم يستطيع العقل البشري أن يستوعبه» ببساطة.

ويأخذ الكاتب يقارن بين الإسلام والنصرانية في مجالات كثيرة ويرى أن الإسلام والنصرانية قريبان إذا يلتقيان في مجالات كثيرة كالإيمان بإله واحد خلق السموات الأرض، والوحي إلى الأنبياء والرسل، والإيمان بالملائكة، وبالبعث بعد الموت، وبأنبياء كثر وردت أسماء بعضهم في العهد القديم والعهد الجديد. ثم يتوقف عند اشتقاق اسم الجلالة في العربية ليبرهن أن الله في الإسلام هو ذاته الإله المعبود بحق في النصرانية واليهودية،

مفندًا في ذلك مزاعم بعض النصارى الغربيين الذين يزعمون أن الله هو «إله القمر» عند عرب الجاهلية، وليس الإله المعبود بحق في الديانات السماوية، ومنهم روبرت موري (Robert Morey) صاحب كتاب «الله، إله القمر كما جاء في حفريات الشرق الأوسط». ويستعرض الجذرين (أل) و(ألـه) اللذين اشتقت منهما الألفاظ الدالة على الإله المعبود بحق عند الشعوب السامية وهي:

الجذر الأول: /إل+ل/. جاء هذا الجذر في البابلية /إِلُّ/؛ وفي العبرية אל = /إيل/؛ وفي الفينيقية والأوغاريتية: /إِلّ/؛ وفي السريانية: = /إيلا/. الجذر الثاني: /إل+ه/. جاء هذا الجذر في العبرية: אלוה = /إِلُوه/ (elōah)؛ وفي الآرامية والسريانية = /ألاها/ «الإله»؛ وفي العربية: /إله/، /إلاه/. ويضيف بأن أصل لفظ الجلالة «الله»: الإله وأن الهمزة حذفت وأن اللام فخمت للتوكيد الشديد على تفرد اللفظ للدلالة على الإله المعبود بحق تمييزاً للفظ من غيره من الألفاظ التي تطلق على الأوثان، مثلما يفرد الغربيون الألفاظ الدالة على الإله المعبود بحق في لغاتهم برسم حروفها الأولى كبيرة مثل God في الإنكليزية و Dieu في الفرنسية تمييزًا لها من تلك المرسومة بأحرف صغيرة (مثل god في الإنكليزية و dieu في الفرنسية) والتي تدل فيها على الأوثان.

ثم يتطرق الكاتب لشخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم ويطرح السؤال التالي: «هل محمد رسول بالمفهوم الكتابي»؟ للإجابة عن هذا السؤال، يستعرض الكاتب قصة نزول الوحي على النبي في غار حراء كما وردت في سيرة ابن إسحاق، ويقارن بين سياقها وسياقات مشابهة في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. ثم يتوقف عند الآية ١٨ من الإصحاح ١٨ سفر تثنية الاشتراع من العهد القديم، التي يخاطب الله فيها موسى حسب رواية التوراة بقوله: (أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ). تقول هذه الآية: (١) إن هذا النبي مثل موسى؛ و(٢) إن هذا النبي من وسط إخوتهم؛ و(٣) إن الله سوف يجعل كلامه في فمه فيبلغه للناس حتى يأتيه اليقين. ويضيف أن أول ما يلفت الانتباه في هذه الآية هو أن النبي الذي سيقيمه الله حسب هذه النبوءة هو مثل موسى. ويفسر النصارى هذه النبوءة بأنها تنطبق على عيسى عليه السلام. لكن المثير للانتباه هنا - حسب الكاتب - أن سيرة عيسى لا تكاد تشبه سيرة موسى في شيء، وأن الشبه الكبير إنما هو بين موسى وبين محمد وبين سيرتيهما. والملاحظة الثانية تتعلق بنسب هذا النبي، لأن إخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل وكلاهما من ولد إبراهيم عليه السلام، فيكون هذا النبي من بني إسماعيل. وعليه «فإن النبي الذي يشبه موسى والذي هو من سلالة إخوة بني إسرائيل - أي من بني إسماعيل - هو بالتالي محمد وليس عيسى» كما يستنتج الكاتب. وهذا الاستنتاج تؤكده الملاحظة الثالثة التي تقول إن هذا النبي الذي يشبه موسى والذي هو من نسب إخوة بني إسرائيل «سوف يتلقى كلمات من إله موسى ليبلغها إلى الناس. ومن المعروف أن محمدًا في التقليد الإسلامي قد نزل عليه الوحي بواسطة جبريل وأنه بلغه للناس بدون أي تدخل منه» في الرسالة الموحاة إليه. ويضيف الكاتب بأن جوهر رسالة موسى لا يختلف في شيء مع جوهر رسالة محمد. فجوهر رسالة موسى هو (اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ) (تثنية الاشتراع، الإصحاح ٦، الآية ٤)، بينما جوهر رسالة محمد هو (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم) (سورة البقرة، الآية ١٦٣).

ثم يناقش الكاتب في سائر فصول كتابه بعض المواضيع الشائكة كمسألة النسخ وآية السيف والإرهاب الذي يمارسه تنظيم (داعش) باسم الإسلام، وكذلك المواضيع التي تثار حولها نقاشات كثيرة مثل وضع المرأة ومسألة صلب المسيح من عدمها وزواج النبي بعائشة والردة في الإسلام وأهل الذمة والعداء مع اليهود، ويضع هذه المواضيع بعد مناقشتها في سياقها الطبيعي. بعد ذلك يختم الكاتب كتابه بفصل يستحضر فيه قصة تحول اليهودي شاول الذي كرَّس حياته لاضطهاد تلاميذ المسيح إلى المسيحية ليصبح القديس بولس فيها كما تروى في التقليد المسيحي. لقد كان شاول في طريقه إلى دمشق لاضطهاد تلاميذ المسيح فيها، فتجلى له عيسى وهو في طريقه، (فَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتًا قَائِلاً لَهُ: «شَاوُلُ، شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي»؟). ويرى أن قصة تحول شاول إلى المسيحية هي قصة تحوله إلى الإسلام. فلقد كان الكاتب لسنوات عديدة شديد العداء للإسلام والمسلمين في هولندا، وكان لا يفوت مناسبة إلا ويهاجمهم فيها ويؤلب الناس عليهم.

إن كتاب «المرتد. التحول من المسيحية إلى الإسلام في عصر العلمنة والإرهاب» كتاب في غاية الأهمية نظرًا لخلفية الكاتب الدينية ومكانته السياسية في المجتمع الهولندي، ونظرا للمواضيع التي عالجها الكاتب فيه. ونحن نوصي بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية.

الكتاب: المرتد. التحول من المسيحية إلى الإسلام في عصر العلمنة والإرهاب
الكاتب: يورام فان كلافرن / Joram van Klaveren
الناشر: دار المعرفة / Kennishuys. هولندا
اللغة: الهولندية
عدد الصفحات: ٢٠٤ صفحة
سنة النشر: ٢٠١٩

* أستاذ الترجمة في جامعة لوفان في بلجيكا

المستقبل آسيوي
باراج خانا

علي الرواحي *

ينطلق هذا العمل من أطروحة تكتسب وجاهتها وأهميتها بشكل سريع ومستمر في العقد الأخير، فهي تتحدث عن أكبر قارة في الأرض من حيث المساحة وعدد السكان وعدد الدول أيضا، حيث بلغت عدد الدول فيها حسب آخر الإحصائيات ٤٨ دولة بعدد سكان يفوق ٤ مليارات نسمة، كما أنها تحتوي على طيف واسع وكبير من العادات والتقاليد والأطعمة والأديان والأعراق والثروات والأحداث التاريخية والأصوات السياسية المتعددة، والتحولات التي لم تقتصر على السياسة وإنما شملت الكثير من أنماط الحياة المختلفة والهائلة. فهي تمتاز بأنها تحتوي على عدد لا نهائي من الطبقات، والأمم، والآداب السردية والشعرية والنثرية والروائية، والفنون...الخ. إنها قارة آسيا.

تشتمل قارة آسيا من الناحية السياسية على أكبر ديمقراطية في التاريخ الأرضي وأكبر نسبة ناخبين وهي الهند، في المقابل، تشتمل أيضا جنبا إلى جنب على أكبر دولة تدار بنظام سياسي مركزي، وحزبي وهي الصين، كما تحتوي أيضا على اليابان صاحبة التاريخ الصناعي الكبير منذ فترة طويلة، بالإضافة لذلك ففي هذه القارة تحدث أكبر التجمعات الدينية السنوية على المستوى العالمي كما هو الحال في السعودية، أو التنوع الديني في المسار الإسلامي كالعراق وإيران وعُمان والهند، وغيرها من البلدان الآسيوية الشاسعة والمتنوعة.

لا يتحدث هذا العمل عن الماضي الآسيوي فقط، بالرغم من أهميته، وبالرغم من أنه يفرد له جانبا كبيرا حيث يعود إلى بداية فجر الحضارة من ميزوبوتاميا القديمة أو العراق حاليا، والتحول الحضاري للإنسان من الصيد الجماعي القبائلي وما رافق ذلك من تحولات وتداخلات بين الشعوب والأعراق في آسيا وخارجها، وبشكل خاص في الدول المجاورة لها من ناحية الحدود الجغرافية.

كل هذا التنوع البشري والثقافي بكل ما يتبعه من آثار سلبية وإيجابية على حد سواء، كفيل بتقديم دروس من وجهة نظر آسيوية للقارة نفسها وللعالم أيضا، ففي هذا السياق يورد المؤلف وجهة نظر للتاريخ وللحياة مغايرة لوجهة النظر المعتادة والسائدة والتي تأتي بشكل مستمر من الجانب الأوروبي. فالجانب اللغوي القديم، وتحديدا في السنسكريتية وهي اللغة الهندية القديمة، أتاح إلى حد بعيد حفظ أنماط مختلفة من الكتابة التايلندية، والتيبتية، وغيرها من اللغات في هذه المناطق والأنحاء، وهذا ينطبق أيضا على اللغة العربية أيضا.

وللقارة الآسيوية تاريخ جديد يصنع الآن، ويعاد إنتاجه بطرق مختلفة، وبشكل خاص بعد الفترة الاستعمارية والحرب الباردة، ففي هذه الفترة أصبحت أوراسيا محط الاهتمام الأوروبي من الناحية السياسية، حيث تجسد ذلك في العلاقة الوثيقة بين روسيا والصين وبشكل خاص بعد عام ١٩٥٠م، وهو ما انعكس في المبيعات العسكرية الروسية للصين في عام ٢٠١٤م، وما بعدها والتي تهدف لحماية بحر الصين الجنوبي والذي يقع بين سنغافورة ومضيق ملقا إلى مضيق تايوان، كما تكمن أهميته في عبور تلك الشحنات البحرية العالمية لهذه المناطق.

من جانب آخر، نجد أن العلاقة بين الصين وروسيا تستحق الكثير من الاهتمام ليس على صعيد أنظمة الحكم المتشابهة، بل أيضا على صعيد الصفقات التجارية المتبادلة والعلاقات البينية الكبيرة، والتي تشمل الصفقات العسكرية والتزويد التقني، وبشكل خاص بعد زيارة وزير الدفاع الصيني الجنرال وي فينج في عام ٢٠١٨م، وتصريحه الملفت للنظر إبان زيارته لروسيا والتي تعتبر الزيارة الأولى بعد توليه المنصب حيث قال: لتعلم أمريكا حجم التعاون والتقارب بين القوتين العسكريتين الصينية والروسية». علاوة على ذلك، فإن هذا التعاون قد امتد لتلك المشاريع الكبيرة ومن بينها مبادرة الحزام والطريق الصينية التي قامت على آثار طريق الحرير القديمة في القرن التاسع عشر الهادفة إلى ربط الصين بالعالم بمبالغ مالية هائلة وطموحات أقلقت الكثير من دول العالم آنذاك، حيث ضخت الصين استثمارات هائلة في البنية التحتية الأوكرانية تصل إلى ٤ مليار دولار بما تشمله من موانئ، ومزارع، وطرق وغيرها، الأمر الذي جعل أوكرانيا تعلن بأن العام ٢١٩م هو العام الصيني في البلاد. بالإضافة إلى ذلك، فإن الاتحاد الاقتصادي الآوروآسيوي أو الأوراسي والذي يهدف لتأمين طريق سلس للتجارة في دول الاتحاد السوفيتي القديم يشكل نافذة مهمة لتعميق الدور الآسيوي على المستوى العالمي.

في الجانب الآخر، فإن العلاقات التجارية بين روسيا والهند بين عامي ٢٠١٤م و٢٠١٧م، شهدت توقيع ٤٠ اتفاقية شملت الفرقاطات البحرية، والطائرات الجوية، والمفاعلات النووية، وغيرها من الصناعات التي بلغت في هذه الفترة ما يقارب ٢٠ مليار دولار، في مقابل ذلك فإن التخوف من هذا التقارب أدى لنشوء رابطة دول جنوب شرق آسيا أو التي تختصر إلى آسيان، حيث تهدف إلى تسريع النمو الاقتصادي بين هذه الدول في مواجهة التكتلات الأخرى.

من الضروري في هذا السياق الحديث عن تركيا واتجاهها مؤخرا إلى الشرق بكل ما تعنيه من ثقل حضاري، وتنوع عرقي، وديموغرافي هائل. فهي بدءا من سلالة الهون إلى العثمانيين مرورا قبل ذلك بالسلاجقة، والثورة الكبيرة التي أحدثها كمال اتاتورك في عام ١٩٢٤م، حيث اتجهت في السنوات الأخيرة إلى أوروبا بغُية تعزيز نفوذها ومصالحها الاقتصادية والسياسية، غير أنها واجهت ردود أفعال غير مناسبة للطموحات السياسية، مما جعلها تتجه إلى آسيا بشكل عام والعرب تحديدا، خاصة بعد الربيع العربي في عام ٢٠١١م، حيث ارتفعت الكثير من الدعوات والشعارات المؤيدة لنظام الحكم في تركيا بعد تلك الفترة، والتي من الممكن أن تقود التحديث والديمقراطية في الدول العربية، غير أن التصرفات اللاحقة لأردوغان ومن ضمنها رغبته في أسلمة تركيا، والسلوكيات غير الديمقراطية التي شملت سجن الصحفيين، والمعارضين وتصفيتهم وغيرها، كل ذلك أثر بطريقة أو بأخرى على الأوضاع السياسية العربية من جهة، غير أنه في المقابل وكما هو الحال لدى روسيا ، فإن تركيا اتجهت من الناحية التجارية والاقتصادية إلى آسيا والدول الإسلامية، حيث تصل نسبة المسلمين في تركيا إلى ١٠٪، الأمر الذي جعل هذا التقارب له ما يبرره ليس من الناحية الاقتصادية فقط، بل ومن الناحية الدينية أيضا ، كما لا يمكننا - بحسب المؤلف - تجاهل الخليج العربي والذي يعتبر نقطة حرجة وهامة في غرب آسيا، فهو قناة هامة يتم عن طريقها تصدير وإيصال الكثير من السلع والبضائع العالمية لكل أنحاء العالم، وكل الأدوار التي قامت على الفترات الزمنية الماضية.

وبالحديث عن ذلك فإن طريق الحرير يكتسب أهمية قصوى في هذا الجانب الآسيوي وتأثيره العالمي، حيث تم في السنوات الأخيرة إحياء هذا النشاط الاقتصادي الهام، وترافق ذلك مع انضمام دول لم تكن في الخارطة مثل إيران والسعودية وغيرها.

في الجانب الآخر، يركز المؤلف وبشكل كبير جدا على اقتصاديات البيئة في آسيا، حيث يرى باراج خانا بأن الدول الآسيوية دخلت في الموجة الثالثة للتحديث في فترة ما بعد الحرب وذلك باليابان وكوريا الجنوبية ثم تبعتها الصين الكبيرة (تايوان، وهونغ كونغ في البداية والصين بشكل أساسي)، ووجدت دفعتها الكبيرة في دول جنوب وجنوب آسيا، حيث أن كل موجة تحديث في كل مرة طالت دولا مختلفة، وعددا مختلفا من السكان، والمنتجات أيضا.

فهذا التقدم الذي نشاهده في آسيا الآن، بما فيها ما يعرف قديما بالنمور الآسيوية هو حصيلة خمسة عقود من التصنيع والدمج الذي قادته اليابان وتبعته بقية الدول بما فيها الصين وغيرها، وهذا انعكس إلى حد كبير في الاستثمارات البينية المختلفة من جهة، والتزايد الكبير واللافت جدا للأغنياء في هذه الدول جيلا بعد جيل وبشكل خاص للأجيال الجديدة التي تقود وتعمل في منتجات جديدة غير مسبوقة، وقد اتضح في ناتج الإجمالي القومي للفرد في هذه الدول حيث شهد في السنوات

الأخيرة ارتفاعا كبيرا تجاوز أو اقترب من الدول المتقدمة، وفي مقدار وحجم التنقلات والسفر من وإلى هذه الدول الآسيوية، حيث شهدت هي الأخرى ارتفاعا هائلا في الرحلات الدولية في السنوات الأخيرة سواء على المستوى الآسيوي أو العالمي. بالإضافة لذلك، فإن حركة التجارة بين هذه الدول والمناطق قد تزايدت اعتباراً من ٢٠١٦م، حيث احتل التبادل الأوروبي نسبة ٣٠٪ من نسبة التجارة العالمية، في حين أن دول شمال شرق آسيا قد بلغت ٢٥٪، بينما جاءت أمريكا الشمالية بنسبة ٢٠٪، كما احتلت دول جنوب شرق آسيا نسبة ١٠٪ من التبادل التجاري. علاوة على ذلك، فإن العلامات التجارية العالمية وبشكلٍ خاص التقنية والتي تُصدر من آسيا لكل دول العالم قد تزايدت كما هو الحال في علامات تجارية مثل هواوي الإلكترونية، ولينوفو، وهاير، وسامسونغ، وغيرها من العلامات التي احتلت جزءا كبيرا من السوق العالمية الواعدة، مما ضمن اجتياحا تجاريا آسيويا غير مسبوق.

تقودنا كل هذه الأنشطة للحديث عن الرأسمالية بطراز آسيوي مختلف، فالدول الآسيوية ليس لديها أدنى شك في أن العولمة كانت وسيلتها الناجحة للرخاء الاقتصادي كما يقول الكاتب (ص١٥٨)، كما أنها أصبحت أقل اعتمادا على الدول الغربية من ناحية الاستيراد والتصدير والتصنيع، فهذه الدول اعتمدت سياسة المناطق التجارية المفتوحة من حيث الاستيراد والتصدير. فعلى مر التاريخ، كانت التجارة الحرة تعتمد على تنامي القوة مع الفائض التجاري، لا سيما في بريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، والولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين. في حين أن الدول الآسيوية كانت وما تزال تنظر للموضوع بطريقة مختلفة، فهي ترى أن السوق عبارة عن شراكة وليس مجالاً للسيادة أو السيطرة، فالدول الآسيوية الأخرى استفادت من الصعود الاقتصادي لليابان وكوريا الجنوبية، وذلك من خلال استيراد منظور الرأسمالية المباشرة للدولة كما فعلت الصين من خلال استخدام مناطق صناعية واقتصادية خاصة لجذب رؤوس المال الأجنبية، والتصنيع التكنولوجي، والتحكم في الأموال لتجنب زعزعة استقرار التدفقات المالية على المدى القصير. فمن روسيا إلى السعودية إلى فيتنام، تدعم الدولة الشركات للتأكد من سيطرة الدولة على الشركات الصناعية المسيطرة. بالإضافة لذلك، نجد أن هناك وعلى المستوى العالمي مؤسسات وشركات مسيطرة في كل قطاع، مما يضطر هذه الدول أو بعضها وبشكلٍ خاص الصين إلى توفير الكثير من المتطلبات كالبترول، والحديد، الألمنيوم وغيرها من المواد.

انعكس هذا التوسع كما ورد سابقا على عدد الأثرياء وأصحاب المليارات في البلدان الآسيوية، حيث وصلت نسبتهم في قارة آسيا إلى ٣٠٪ على المستوى العالمي، كما نجد في الهند بأننا أمام رقم غير مسبوق في هذا المجال، مما يعني بشكلٍ أو بآخر انتقال رؤوس الأموال هذه والتي كانت لفترة طويلة في الغرب وأمريكا إلى الدول الآسيوية، كما يعني من جانبٍ آخر اتساع الطبقة الوسطى في هذه البلدان كما لم يحدث من قبل. فإدارة هذه الثروات بشكل جيد ومتقن أدى إلى ازدهار وصعود الكثير من الأسر والعوائل الجديدة التي كانت لفترات طويلة خارج نطاق الثراء.

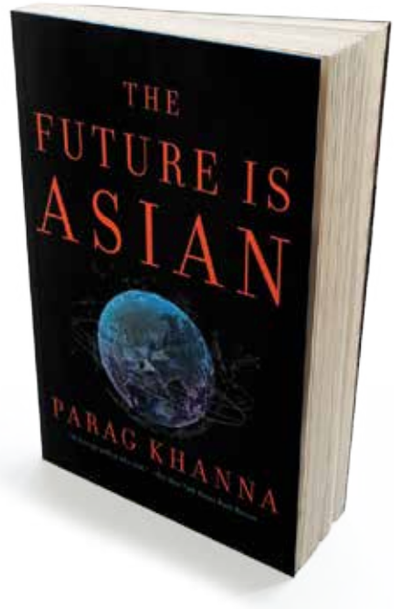

غير أن الانتقال الحاسم في الاقتصاد الآسيوي، حسبما يقول المؤلف، انتقل وبشكل تدريجي من الاقتصاد المُعتمد على العلاقات الشخصية والاجتماعية إلى القائم على القوانين والمؤسسات، وهو ما مكن اقتصاد السوق أن يقود التنمية والتطوير الوطني للأمام. فالآسيوي استبطن في السنوات الأخيرة بأن الأسواق من الضروري أن تساهم أو تقوم برعاية الكثير من المشاريع المجتمعية التي تؤدي لتحسين الأوضاع المعيشية للأفراد.

يتناول الفصل الخامس ظاهرة مهمة تحدث بين المجتمعات والدول الآسيوية من جهة، والولايات المتحدة الأمريكية من الجهة الأخرى، وهذا يتعلق بظاهرة الهجرات المتبادلة بين الطرفين أو بين الأطراف المختلفة كلها، فالولايات المتحدة تأسست عن طريق المهاجرين من جميع أنحاء القارة، غير أنه في نهاية القرن الثامن عشر توافد الآسيويون إليها من جميع الأنحاء. في هذا السياق، نجد أن الفلبينيين تزايدت أعدادهم كمهاجرين لأمريكا عندما كانت تقع تحت الاستعمار الأمريكي. وفي الوقت الحالي نجد أن هناك ٢١ مليون في أمريكا يحملون بداخلهم التراث الآسيوي بكل تعدده، وتنوعه، فالصينيون يصلون إلى ٥ مليون، ومن الهند ٤ مليون، والفلبين ٤ مليون كذلك، وبنسبة أقل من فيتنام وكوريا، كما أن هناك توقعات بعدد ٣ مليون عربي يتواجدون حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية، فالتواجد العربي يزيد على قرن من الزمان، والذي توافق مع ميترو ديترويت الذي جذب عددا كبيرا من اللبنانيين، والسوريين، والعراقيين، واليمنيين، الذين عملوا بشكل مبدئي في محلات ثم لاحقا انضموا للعمل في مصانع السيارات وغيرها. فيما بعد ونتيجة للأوضاع السياسية الدائرة في المناطق العربية كالحرب الأهلية اللبنانية، والحرب العراقية الإيرانية، وغزو العراق، وغيرها من الأحداث، كل ذلك ساهم في الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة وتحديدا ميتشغان.

لا يقتصر الأمر على ذلك، فالدور الآسيوي في أمريكا وصل إلى الجانب الرياضي، فمن الجانب الصيني نجد ياو منج في كرة السلة، إلى الياباني سوزوكي في كرة البيسبول، إلى النجم التايواني جيرمي لِن في دوري كرة السلة الأمريكي الشهير، وغيرهم من الأسماء الآسيوية التي حققت نجاحا كبيرا في الولايات المتحدة الأمريكية، ليس في مجال محدد دون الآخر بل في الكثير من المجالات التي لا تحصى، وربما من أهمها المناصب الأكاديمية والبحثية العليا في البلاد، حيث أدى ذلك إلى تفهم الشعب والحكومة الأمريكية الخصوصية الكبيرة والفرادة التي تزخر بها الثقافة الآسيوية، وذلك منذ عام ١٨٩٣م حينما ألقى الفيلسوف الهندي سوامي فيفي كاناندا الذي ساهم في إدخال ثقافة اليوغا في العالم الغربي وتحديدا في خطابه في البرلمان العالمي للأديان. كما ساهم كتاب الفيلسوف النمساوي حول تاو الفيزياء والذي نشر عام ١٩٧٥م والذي حاز على أعلى الكتب مبيعا، في انتشار التصورات الهندية والبوذية حول أن فيزياء الكوانتم كانت من صميم التصورات الدينية والثقافية للهند. كما ينبغي التنويه هنا بالحضور اللافت والبارز للمؤلفة البريطانية الشهيرة كارن آرمسترونج ودراساتها المختلفة حول البوذية والإسلام والتي لاقت هي الأخرى منذ فترات طويلة انتشارا كبيرا بين القُرّاء الغربيين.

امتدت هذه العلاقة وهذا التأثير المتبادل في تلك الأفواج الآسيوية التي تذهب للتعليم وطلب المعرفة من الطلاب وبشكلٍ خاص من الصين ذات الكثافة السكانية العالية، والتي تصل إلى ما يقارب ١٠٠ الف في كل عام جديد، وهو ما ينطبق أيضا على الهند وكوريا الجنوبية، حيث يشكل الدخل من القطاع التعليمي في أمريكا من الناتج القومي المحلي ما يصل إلى ١٠٪.

في الفصل التاسع يتناول المؤلف مستقبل حكومة الكفاءات في آسيا أو التكنوقراط، حيث يرى بأن الديمقراطية تنتشر بشكلٍ كبير في القارة الشاسعة، فهي تشمل بين جنباتها الكثير من القمم الديمقراطية العالمية كما هو الحال في أستراليا ونيوزيلاندا (ص٢٨١)، بالرغم من التأثير البريطاني البرلماني في سياستهما الداخلية، اليابان وكوريا الجنوبية والتي تأسست الأنظمة السياسية فيهما بعد الحرب وبرعاية أمريكية، وتايوان ونظامها الديمقراطي القريب جغرافيا من الصين، حيث تعتبر كوريا الجنوبية وتايوان من الدول التي تقع في قمة هرم التحولات الديمقراطية وذلك حسب مقياس التحولات الديمقراطية، والذي يقيس هذه التحولات من خلال الإدارة السياسية، واقتصاد السوق، وذلك بناءً على بعض المعايير ومن ضمنها حكم القانون.

في ختام هذا العمل، الذي يطوف بالقارئ في جوانب مختلفة من القارة الآسيوية، ماضيها، وحاضرها، ومستقبلها، نجد أن مستقبل القارة آخذ في التحسن من النواحي السياسية، والاقتصادية وغيرها، وإن كان ذلك في الدول غير العربية التي تشهد تكتلات سياسية، واقتصادية من جهة، وتحولات مجتمعية من جهة أخرى.

الكتاب: المستقبل آسيوي
المؤلف: باراج خانا
الناشر: Simon & Schuster, 2019
عدد الصفحات: ٤٤٨ صفحة
لغة الكتاب: الإنجليزية

*** كاتب عُماني**

بنيامين وأدورنو وتجربة الأدب
مؤلف جماعي تحت إشراف كوري ماك كول

زينب الكلبانية *

يتناول هذا الكتاب - وهو عبارة عن بحوث أصلية - مقالات ومراسلات كل من الفيلسوف المتأدب والتر بنيامين (١٨٩٢-١٩٤٠) والفيلسوف الناقد ثيودور أدورنو (١٩٠٣-١٩٣٩) صاحب النظرية الجمالية حول الأدب. ويظهر الكتاب كيف أنّ هذين الفيلسوفين الشهيرين في القرن العشرين ما كانا مجرد فيلسوفين كتبا في الأدب بعض الكتابات، وإنما تطورا وطورا فلسفتيهما عبر الأدب وعن طريق مقالاتهما.

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام: يتناول القسم الأول السبل التي أغنى بها الأدب تفكير كل من بنيامين وأدورنو، ويستكشف الموضوعات الجوهرية في تفكيرهما في الأدب. المحاكاة، ونقد التقدم التاريخي، وفقدان التجربة واستعادتها، وذلك عبر قراءاتها في مؤلفات أدباء شأن بودلير وبيكيت وبروست.

ويؤلف القسم الثاني بين أربع مقالات لبنيامين وأدورنو في قراءاتهما لكافكا، والتي أسعفتهما في تطوير رد على الرأسمالية ونقد مميز لها. أما القسم الأخير، فمداره على مسألة ما الذي يعنيه استفادة استبصار نقدي من عمل أدبي، ويتعلق الأمر بقراءات بنيامين لكُتاب ومؤلفين مسرحيين مثل جورج بوخنر وروبرت فالتزر وجوليان غرين، الذين عادة ما نُظر إلى أعمالهم على أنها أعمال غير مهضومة وعسيرة عن الأفهام. وبالجملة يقدم الكتاب فحصا فريدا وظريفا ولطيفا لأعمال فيلسوفين كبيرين، وذلك عبر منظار تجاربهما المشتركة مع الأدب.

إنّ هذه العلاقة التي تشكل جزءا لا يتجزأ من ارتباطهما بالأدب، بالإضافة إلى الفنون الأخرى، هي التي يمكن أن تجعل عملهما شاقا لاستيعاب مصطلحات الفلسفة الأكاديمية المعاصرة. إنهما يأتيان من وجهة نظر لا تؤمن بدون قيد أو شرط بنوع التقسيم الأكاديمي للعمل الذي يستخدمه العلماء في كثير من الأحيان لاستخلاص أعمالهم، وهي وجهة نظر لا تؤمن بأن التفكير يمكن فصله بشكل كامل عن نوع الأشياء، والخبرات والظواهر التاريخية التي تعطي زخما للفكر.

وحتى في أوقاتهما الخاصة، كانت لديهما شكوك حول مدى تفكيرهما في فصول التخصص الأكاديمي والمهني. وتحدث الكتاب عن مفهوم وقت الفراغ، إذ يلقي أدورنو الضوء على مهنته بالأدب والموسيقى ويقول «أغتنم الأنشطة التي أشغلها خارج حدود مهنتي الرسمية، دون استثناء، بجدية لدرجة أنني سأصاب بالصدمة إذا كان له أي علاقة بالهوايات. إن صناعة الموسيقى، والاستماع إلى الموسيقى، وقراءة الأدب مع التركيز؛ تشكل عنصرا أساسيا في وجودي، وهواية الكلمة سيكون للسخرية منها».

ينتقد هذا الكتاب ليس فقط الصلابة التي يفصل بها المجتمع الحديث عملنا عن أنشطتنا الترفيهية، ولكن أيضا السمة الأساسية للتقسيم الأكاديمي الحديث؛ للعمل على فكرة وجود لقاء غني مع أعمال الموسيقى أو الأدب، هو شيء لا علاقة له على الإطلاق بتلك التخصصات الأكاديمية التي تنتج المعرفة، مثل الفلسفة أو علم الاجتماع. في الواقع، عند قراءة أدورنو، يصبح من الصعب فصل محاولته لتطوير نظرية جمالية عن مناقشته للأعمال الموسيقية والأدبية، لكن بالنسبة لبنيامين، فإن التركيز على الأدب ضروري أكثر لتصوره لمشروعه الشامل.

الهدف عند بنيامين هو أن يعتبر الناقد الأول للأدب الألماني، والمشكلة هي أن النقد الأدبي لم يعد يعتبر نوعا خطيرا في ألمانيا ولم يعد لأكثر من خمسين عاما. يعتبر بنيامين أن انتقاد الأدب هو النقطة المحورية في تنوعاته الغنية من الملاحقات حتى هذه المرحلة، وحتى الآن يعتبر النقد الأدبي نوعا غير موجود تقريبا، على الرغم من الثقافة الأدبية الغنية لجمهورية فايمار. هذا بسبب الحس العميق الذي يفهم فيه النقد باعتباره وسيلة من الخبرة والمعرفة التي تتجاوز الكائن في السعي وراء محتواها الحقيقي. في الوقت الذي يبدو فيه أن بنيامين يتحول من الفلسفة الأكاديمية إلى النقد الأدبي، يعطينا استعارة عن العمل الأدبي كنوع من الأحادية، حيث تتحقق مشكلات الفلسفة في شكل غير محلول. يختتم الفيلسوف الأمريكي ستانلي كافيل كتاب «إدعاء العقل»، وهو دراسة مكثفة للتشكك وفلسفة اللغة العادية، بمسألة ما إذا كانت الفلسفة يمكن أن تصبح أدبا وما زالت تعرف نفسها.

هذا السؤال ينم عن قلق بشأن أصول ونقاء الفلسفة، التي هي نفسها عقبة في اكتساب فهم لنفسها، على الرغم من أن بنيامين وأدورنو لم يقترحا أن الفلسفة تنتقل ببساطة إلى الأدب، فهما يدققان باستمرار في الحدود بسؤالهما ما الذي يربط بين المساعدين، ويمكنهما التعلم من بعضهما البعض. ينظر بنيامين وأدورنو إلى الفلسفة على أنها مسعى مشروط بالأدب، وخاصة الأدب الحديث، مما يجعل من المستحيل فهم الفلسفة الحديثة دون النظر إليها من حيث الأدب، وبالمثل، نكتسب فهما أعمق للإنتاج الأدبي الحديث، بمجرد أن ننظر إليه من زاوية الناحية الفلسفية.

في نقيض شديد لقلق كافيل التأديبي في وقت لاحق من الفلسفة التي ربما تفقد نفسها في الأدب، يستكشف بنيامين وأدورنو الحدود التي يسهل اختراقها بين الأدب والفلسفة، لكنهما يفعلان أكثر من ذلك. إذ يسعى كل منهما بطريقته الخاصة، بالإضافة إلى التعاون، إلى اكتساب المعرفة الذاتية بالطبيعة الوهمية والفلسفية من خلال وضعها في حوار مع الأدب بشكل عام والأدب الحديث على وجه الخصوص. هذه التقاطعات الرائعة بين الأدب والفلسفة التي تمتد عبر المهن، يساعد كلا المفكرين على تفسير سبب استمرار كتابات أدورنو وبنيامين في إثارة الاهتمام، ليس فقط في الفلسفة والنظرية الاجتماعية، ولكن أيضا في الدراسات الأدبية.

يبدو أن كتاباتهما عن الأدب تؤسس كتابا لمؤلفي مدرسة فرانكفورت، وتقترح طريقة لقراءة الأدب كأساس للتفسير الفلسفي والسياسي. على عكس المدرسة الماركسية للنقاد الأدبيين، الذين تبادلوا معهم بعض التعاطف السياسي، فقد أوليا اهتماما أكبر بالشكل الأدبي وأساليب الكتابة الحديثة؛ ففهم هذه الابتكارات ذات أهمية جمالية وسياسية على حد سواء.

ينتمي بنيامين إلى أول القراء الجادين لكافكا ، قبل عقود من الاتجاه العام لقراءته باعتباره عبثيا أو وجوديا. في الواقع، يتمثل جزء كبير من مقاربته للأدب في مواجهة ما لم يتم هضمه بعد، واكتشاف المؤلفين الذين يولدون رؤية قديمة وحديثة بشكل خاص للمجتمع الحديث، ومن ثم الاستفادة من هذه الرؤى الأدبية الجديدة لاستنباط فلسفة جديدة. في الواقع، من الصعب أن نتخيل أن النص الأصلي المذهل مثل ديالكتيك التنوير سيكون هو نفسه دون إشاراته إلى الأدب، تماما مثلما كان فكر أدورنو بشكل عام أنه لن يتبع نفس المسار دون تأثير بنيامين. يأخذ الكتاب هذا التأثير كمشكلة تستحق إجراء تحقيق علمي أعمق: ما الذي تعلمه بنيامين وأدورنو من خلال قراءة الأدب؟ كيف اكتشفا موضوعات وتجارب جديدة في العالم في كتاب أدبي؟ كيف أثرت هذه التجارب في فلسفاتهما؟ بشكل عام، ما هو مكان الاجتماع بين الأدب والفلسفة؟ ما هي فلسفة اللغة والتعبير والفكر التي تكمن وراء ضرورة أن تتعلم الفلسفة من الأدب بالطريقة التي يقومان بها؟ كل مقال في هذا الكتاب مخصص لاستكشاف تجربة أدبية محددة من هذا النوع، لقاء محدد بين الأدب والفلسفة.

لكن أولاً، سيكون من المفيد تقديم بعض الأفكار حول الفلسفة العامة للأدب التي تكمن وراء إمكانية مثل هذا اللقاء. ما الذي يعرّف الأدب كوسيلة للكتابة، وكموضوع للتحقيق الفلسفي؟ بادئ ذي بدء، تجدر الإشارة إلى أنه بالنسبة لأولئك الذين يفكرون باللغة الألمانية، فإن كلمة الشعر غالبا ما تشير إلى الأدب بشكل عام. أي أنه حتى أعمال مؤلفي النثر مثل توماس مان أو مارسيل بروست أو فرانز كافكا سوف يطلق عليها «ديتشتونج» أو «ديتشيريش» في المصطلح الألماني. ما يبدو أن هذه العلاقة العميقة بين الشعري والأدبي تؤكد أنه مع الأدب فإننا نتعامل مع أسلوب للكتابة حيث يرتبط شكل التعبير بشكل غير قابل للاختزال بمحتوى الكتابة. هذي هي بالضبط العلاقة بين الشكل والمحتوى الذي يمثل الأهمية النموذجية للأدب لكل من بنيامين وأدورنو. في حين أن كلا من الفلسفة والأدب يحدث في اللغة، فإن الفلسفة لديها شيء لتتعلمه من الأدب على وجه التحديد؛ بسبب الطريقة التي ينظم بها هذا الأخير صراحة فيما يتعلق بالجانب التعبيري للغة. يستخدم بنيامين في أحد أهم النصوص المنهجية له مصطلح دارستيلونج (عرض أو تمثيل) لوصف

المشكلة التي تشترك فيها كل من الفلسفة والأدب، ومن المهم للكتابة الفلسفية أنه يجب عليها أن تقف دائما أمام مشكلة العرض، فإذا كانت الفلسفة لا تريد أن تكون دليلا للتوسط في المعرفة، ولكن الحفاظ على القانون بشكله كعرض للحقيقة، يجب التركيز على ممارسة هذا النموذج، وليس على ترقبها في النظام.

يجادل بنيامين بأن الكتابة والكلام الفلسفي يجب أن يتوقفا باستمرار، لأن ما هو عليه بعد الحقيقة، يجب مواجهتهما باستمرار من مجموعة متنوعة من الزوايا والتعامل معها بشكل غير مباشر من خلال سلسلة من الصيغ المجزأة. الحقيقة المنضوية في رقصة الأفكار الممثلة، تفلت من أي جهد لوضعها في عالم المعرفة. المعرفة هي كحيازة، يظل وضع عرضها ثانويا. هذا بالضبط جانب العرض الذي يميز الحقيقة. لأنه على وجه التحديد، لغة الفلسفة ليست مجرد وسيلة لوصف نتائج المعرفة العلمية، لكنها تهتم «بتقديم» أو تجسيد الأفكار غير الملموسة التي قاومت المعرفة الكاملة منذ حوارات أفلاطون. يجادل بنيامين أنه يجب على الفلسفة أن تقلق بشأن علاقتها باللغة، وحقيقة أنها تعتمد على الكلمات والجمل، والمصطلحات وأشكال الكتابة التقليدية، من أجل تحقيق شكلها الخاص الذي لا يمكن الاستغناء عنه. لا تزال فكرة الحقيقة التي يصوغها بنيامين هنا بعيدة المنال، لكنها تشير بوضوح إلى التقاطع بين الفلسفة والأدب. إذا لم يكن من الممكن معرفة الحقيقة، يتم تقديمها بطريقة غير مباشرة من خلال نوع من التفكير الذي يتوقف عن الاهتمام بنفسها بطريقة العرض، فالفلسفة لها ارتباطات عميقة بالأدب.

ومن أعماله العظيمة الأخيرة، النظرية الجمالية، إذ يتناول أدورنو مشكلة الحقيقة والعرض الخاصة التي يرثها من بنيامين من خلال تطوير الادعاء بأن الفن بشكل عام يجب أن يفهم على أنه محدد بشكل أساسي من خلال محتواه الحقيقي. تحفز المواجهة الكاملة لأدورنو مع الفن الحديث على فكرة أنه إذا أصبح الفن مهما كمشكلة للفلسفة، فذلك لأن الفن في بعض الأحيان لديه القدرة على إنجاز شيء طالما حاولت الفلسفة تحقيقه ولكنه فشل في تحقيقه. في حين سعت الفلسفة دائما إلى معرفة العالم من خلال المفاهيم، فقد تم منعها من تحقيق هذا الهدف لأن مفاهيمها تفعل الكثير لتخفيه كما تكشف عن العالم. على وجه التحديد حين تكون الأعمال الفنية مبهمة لأنها تنسحب من نوع الفهم الذي يبدو أنها تطالب به، فإنها توفر لنا تجربة هذه الفلسفة الأعمق. في هذا العمل المتأخر الأكثر تحديا، يسعى أدورنو إلى تقديم فلسفة فنية معنية بإمكانيات الأعمال الفنية، لجعلنا نهتم بما هو صعب وغامض في علاقتنا بالعالم.

لاحظ العديد من المعلقين أن أدورنو في هذا العمل يصارع مشكلة كيفية كتابة عمل فلسفي يعرض نفسه بطريقة تحاكي محتوى الحقيقة في العمل الفني. على الرغم من أن المجلد الحالي لا يمكن أن يوفر حلا لعزل الحقيقة الجمالية المتمثلة في أن كلا من بنيامين وأدورنو لهما دور مركزي في أعمالهما، ويبدو واضحا من الاستشهادات المذكورة أعلاه أنه لن يكون من الممكن فهم الطريقة التي تتتبعها الفلسفة أو الفن في الحقيقة دون دراسة أعمق للعديد من الطرق التي كانت فلسفاتها غنية بقراءة الأدب، بمعنى أن هذه الدراسة لدور الأدب في أعمال بنيامين وأدورنو تنتمي إلى مناقشة أوسع حول كيفية تفكيرهما في الفن والجمالية بشكل عام. والعديد من العلماء، وخاصة في اللغة الألمانية التقليدية، فهم أدورنو وبنيامين على أنهما فيلسوفان من التجربة الجمالية.

الكتاب: بنيامين وأدورنو وتجربة الأدب
المؤلف: مؤلف جماعي تحت إشراف كوري ماك كول وناثان روس
دار النشر: راوتلدج
لغة النشر: اللغة الانجليزية
سنة النشر: ٢٠١٨م

*** كاتبة عُمانية**

إبراهيم- إسماعيل- إسحاق: شخصيات قيادية لليهود والمسيحيين والمسلمين
محمد سمير مرتضى

رضوان ضاوي *

صدر كتاب الباحث في الدراسات الإسلامية محمد سمير مرتضى الجديد بعنوان «إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، أيوب: شخصيات قيادية لليهود والمسيحيين والمسلمين» في سنة ٢٠١٨ ضمن مشروع فكري يهتم بتطوير الدراسات الإسلامية المعاصرة المكتوبة باللغة الألمانية، من باب البحث عن مسالك للحوار والنقاش الجاد والمثمر والمنصف بين الديانات الإبراهيمية الثلاثة. وإذا كان الكتاب الأول ضمن هذا المشروع قد ركز على سيدنا آدم باعتباره أبا للبشر جميعا، فإن هذا الكتاب يركز على شخصية سيدنا إبراهيم الخليل القيادية وما يُمكن أن يقدمه نموذج سيدنا إبراهيم من أجل تشييد قنوات حوار بين الإسلام والمسيحية واليهودية.

مشروع حوار ديني باللغة الألمانية

تواصل الكتابات الأكاديمية الألمانية في الدراسات الإسلامية والحوار الدّيني الاستفادة من مادّة قصص الأنبياء في القرآن وفي التّوراة، باعتبارها أساساً للحوار بين الديانات الإبراهيمية وجوهراً له. لهذا، يمكن الربط بين الكتابين من أجل تعميق وتوسيع التصورات التي قدمها الباحث في هذا الكتاب عن قصص الأنبياء. ومن خلال الربط بين مراجعتنا لكتاب «آدم، إدريس، نوح: الخلق المبكر للكتاب المقدس وللقرآن من خلال رؤية يهودية وإسلامية» لـ: محمد سمير مرتضى، الذي صدر سنة (٢٠١٧)، ومضمون الكتاب الجديد للمؤلف ذاته والموسوم بـ «إبراهيم- إسماعيل- إسحاق: شخصيات قيادية لليهود، والمسيحيين، والمسلمين» (٢٠١٨)، بهدف تحيين فهم الإشكالات الدينيّة التي ظلّ الباحث مرتضى يطرحها في جل كتاباته، وهي إشكالات الحوار بين الأديان، نستطيع التوصل إلى نتيجة مفادها أنّ الباحث مرتضى - الذي يفهم حياة المؤمن على أنّها حوار متعدّد مع الله- يركّز على الحواريّة التي تجمع المؤمن بالله؛ بالتالي تكمن أهميّة كتاب «إبراهيم- إسماعيل- إسحاق: شخصيات قيادية لليهود، والمسيحيين، والمسلمين» في أنّه يقدّم قراءة جديدة في سياق النّقاشات الرّاهنة حول علاقة دور النّصوص الدّينيّة اليهوديّة والإسلاميّة ورؤى العالم في قصص الأنبياء. ويمكن الربط بين أطروحتي الكتابين من تعميق وتوسيع التصورات التي قدمها الباحث في كتابه الجديد عن قصص الأنبياء من خلال شخصية سيدنا إبراهيم الخليل. فمحمد سمير مرتضى الباحث في الدراسات الإسلامية يقتحم مسلكا جديداً بخطوات ثابتة لها امتدادها في مشروعه الحواري الذي أسسه في كتابه «آدم، إدريس، نوح، أيوب: الخلق المبكر للكتاب المقدس وللقرآن من خلال رؤية يهودية وإسلامية» وفي مؤلفات أخرى. ومن المفيد التأكيد على أن الأمر يتعلق هنا بمنظورات جديدة قدمها الباحث وعالج بها قصة الخليل إبراهيم عليه السلام في القرآن والتوراه: من خلال مبدأ المُماثلة بين القرارات الإلهية والقرارات الشخصية لإبراهيم، ومقارنة قصة سيدنا إبراهيم التوراتية والإنجيلية والقرآنية.

النبي إبراهيم في التوثيق النصي والبصري

استعان المؤلف في كتابه بمنهج المقارنة، من خلال استناده إلى الدراسات الإسلامية المعاصرة والتفاسير الجديدة، وبمصادر أصيلة مثل القرآن الكريم ومصادر يهودية ومسيحية، وضمّ الكتاب مجموعة من الصور/النقوش التي تعود إلى القرن الخامس عشر أو السادس عشر، وهي إما فارسية أو أويغورية. ومصدر هذه الصور الأرشيف الخاص بالمؤلف، باستثناء ثلاث صور حصل عليها الكاتب من كتاب « Bible Figures in Islamic Art. From Adam to Jesus. Chreston: 15.» لمارليس بورغ Marlies Borg (2012). ويضم الكتاب ثلاث مجموعات من النقوش: ١- النقوش الفارسية التي تعود إلى القرن السادس عشر: نقش «وضع قوم إبراهيم له في النار» (ص.١٧)، ونقش «تقديم قصة الفداء» (ص.٥٨)، ونقش بعنوان «إبراهيم ولوط متعمقين في حوار بعد إبلاغهما من طرف الملاك بخبر تدمير سدوم» (ص. ١٦١). ٢- النقوش الأويغورية التي تعود إلى القرن الخامس عشر: مثل «تقديم قصة الفداء» (ص. ٩٠) و«لقاء النبي محمد بالخليل إبراهيم أثناء رحلة الإسراء والمعراج»(ص. ١٣٨)، و«تقديم الحرق الجزئي لإبراهيم»(ص. ٢٠٢). ٣- وهناك نقش لم يحدد الباحث أصله وهو عبارة عن تصوير لـ«تقديم آخر لقصة الفداء» (ص. ١١٠). وبخصوص دور هذه النقوش والرسومات في الكتاب، يقول المؤلف إنها نقوش عبارة عن زخرفة تشير إلى مُعالجة سردية لقصة سيدنا إبراهيم في الفن الإسلامي، لا أكثر ولا أقل. لكن من وجهة نظري، وبغض النظر عن طريقة توظيف الكاتب لها في كتابه، تُعلم هذه النقوش أن النبي إبراهيم «أبو الأنبياء» تواترت أخباره في القصص الديني والشعبي معاً، وعمل الفن الإسلامي -باعتباره جزءًا من التراث الديني- إلى جانب التوثيق النصي، على توثيق قيمة هذه الشخصية بصرياً من خلال اللوحات الفنية والنقوش والحفر على الخشب. فمن المؤكد أن شخصية النبي إبراهيم قد أثرت تأثيراً قوياً وعظيماً في الأديان التوحيدية الثلاثة، وربما يدل على هذه الفكرة نعت الديانات الثلاثة بصفة الأديان الإبراهيمية. كما أن هناك العديد من التأثيرات وأوجه التقارب التي ربطت ما بين قصة النبي إبراهيم من جهة، وأنساق دينية وثقافية وشعبية مختلفة من جهة أخرى، باعتبار أنَّ الشخصيات الرئيسة في الديانات الثلاثة إنما هم شخصيات واحدة، وشخصية النبي إبراهيم، كان لها حضور مؤثر وتجليات على علم الكلام، من خلال الأخذ بالقواعد التي سار عليها إبراهيم للوصول لمعرفة الخالق: المحاججة، وشك إبراهيم الوارد ذكره في القرآن،» قصة ذبح إبراهيم لابنه والتضحية والفداء، والتوحيد المطلق، وقصة نجاة إبراهيم من النار. ويمكن للقارئ المطلع على الكتاب أن يشاهد النقوش ويكتشف أن القضايا التي عرضتا لها هذه الصور المهمة والتي تمثل تجليات شخصية سيدنا إبراهيم هي من المواضيع التي قُدر لها أن تلقى رواجاً وذيوعاً على مر القرون، ليس فقط في التوثيق البصري الإسلامي، والتوثيق النصي المسيحي واليهودي، بل أيضا في المخيال الشعبي الذي اهتم بهذه القصص وزاد فيها الكثير من التفاصيل التي تقترب أو تبتعد عن الحكاية الأصل الموجودة في النصوص الدينية.

هذا الكتاب ومفهوم النموذج/القدوة

ركز الباحث على المفهوم الجديد «النموذج» باعتبار سيدنا إبراهيم قدوة وصورة أصلية للخلق كله، وهو شخصية دينية قادرة على دمج كل الأمة الإبراهيمية ووضعها في طريق المستقبل المشترك والمصير المشترك. وقد رفع القرآن من قيمة سيدنا إسماعيل، الذي تم قمعه وتهميشه في الإنجيل العبري وفي اليهودية. بهذا يسلط تفسير سمير مرتضى المعاصر الضوء بشكل إيجابي على شخصية سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل باعتبارهما شخصيتين قياديتين وقيمة كبيرة جداً للحوار المتداخل الأديان.

تتأسس أطروحة هذا الكتاب على التزام المحاضر بمشروعه

الفكري وما قدّمه الباحث في عدة محاضرات في المعهد العالي الكنسي فوبرتال بيتل وقام بتوسيع قضايا تلك المحاضرات ومناقشتها بشكل مكثف ودقيق مع الطلبة. ولقيت هذه المحاضرات المدرسية السهلة الفهم اهتمام المستمعين، ليس فقط من حيث عمق الطرح العلمي، والأبعاد الجديدة التي تناول بها الباحث أطروحته الجديدة، التي يمكن فهمها بدقة من خلال قصة سيدنا إبراهيم، ومن خلال الحاضر أيضا. فهذه المحاضرات المنشورة في هذا الكتاب أعدت ليتم تلقيها من طرف جمهور عريض وعام، وهو كتاب يستحق قرّاء حيويين وإيجابيين ومتفاعلين، ذلك أن هذا الكتاب أريد له أن يكون مشجّعاً للحوار بين اليهود والمسيحيين والمسلمين. إن المحاضرات التي قدمها الباحث عن شخصية إبراهيم وإسماعيل وإسحاق الإنجيلية والقرآنية في العهد العالي الكنسي قدمت له فرصة وإمكانية «تعميق وتجديد منهجي التفسير الذين استعملهما في كتابه «آدم، إدريس، نوح، أيوب: الخلق المبكر للكتاب المقدس وللقرآن من خلال رؤية يهودية وإسلامية»، فمرتضى يعطي في تفسيره إمكانات فهم جديدة للأسئلة الجديدة ولا يقدم تفسيرات نهائية، ويمكن للقارئ دائماً طرح أسئلة على الكاتب، مما يحفزه على التفكير الجديد ويسند المنهج. ولا يتردد الكاتب في أن يكون كتابه عبر تنوع معانيه، لبنة أساسية للدفع بالحوار بين اليهود والمسيحيين والمسلمين. فبالنسبة لنا، كل الأنبياء هم شخصيات انعكاسية ترجعنا وتقودنا إلى ماضي البشرية بقليل من الأهمية، لكنهم يجبروننا بشكل فردي وشخصي على التعامل مع حالتنا الراهنة، من أجل تحفيز التفكير في كيفية تطوير أنفسنا باعتبارنا بشرا نطور أنفسنا.

قصة النبي إبراهيم في الكتاب المقدس

أقصت التوراة إسماعيل بوضوح من عهد الله لإبراهيم وذريته، وبالتالي فإن انتقاد الإسلام لليهودية له ما يبرره. ويُعد الكتاب المقدس هو المصدر الأقدم تاريخياً، فيما يخص سيرة النبي إبراهيم، حيث نجد أن قصة ذلك النبي قد تم تناولها بشكل مكثف في سفر التكوين منذ رحلات إبراهيم مع أهله حتى ظهور الرب لإبراهيم، الذي أعطاه الوعد الإلهي عندما قال له «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذه الأَرْضَ»، ثم جاء الوعد الثاني من الرب لإبراهيم، وأمر الرب إبراهيم بأن يختتن، ويؤكد سفر التكوين أن إبراهيم لما طلب من الرب أن يستكمل عهده مع ابنه إسماعيل، فإن الرب رفض وقال له «عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية»، ثم يشرح الكتاب المقدس المحنة الكبرى التي تعرض لها إبراهيم عقب أن أمره الله بذبح ابنه اسحاق، وكيف أن الرب قد فدى الابن بذبيحة بعدما أظهر إبراهيم إمارات الطاعة والتسليم. يمكن ملاحظة إقصاء سيدنا إسماعيل لصالح سيدنا إسحاق في المصادر اليهودية المتناقضة وأيضا عند المسيحيين. لذلك هناك نسيان لإسماعيل يجب التغلب عليه حتى يتعرف اليهود والمسيحيون على الإسلام كدين إبراهيم.

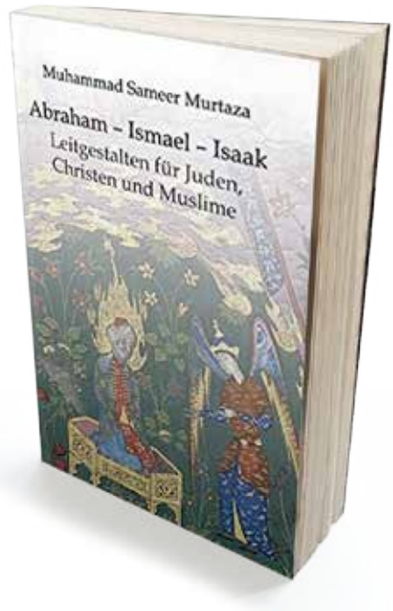

من خلال كل ما سبق نستنتج أن الغرض من معالجة الكاتب لقصص الأنبياء في التّوراة ومقارنتها بمثيلتها في القرآن الكريم هو الوصول إلى حقيقة أن إبراهيم هو أيضًا نموذج رائع لليهود، ولكن ليس كنبي، وإنما باعتباره أباً أصليا للمسلمين والمسيحيين واليهود. بالنسبة للمسيحيين، يلاحظ المؤلف أن إبراهيم يلعب دورًا أصغر بكثير من دوره عند اليهود والمسلمين، بالطبع، يستحضر المسيحيون إبراهيم، مما يؤكد أنهم ينتمون إلى الديانات الإبراهيمية، لكن الباحث مرتضى يعتقد أن الكثير من الانشغال بإبراهيم سيثير حتماً على الجانب المسيحي أسئلة كثيرة حول التفكير في الله، أي التوحيد الإبراهيمي مقابل عقيدة الثالوث.

قصة النبي إبراهيم في القرآن الكريم

رغم أن المصادر الإسلامية الرئيسة، القرآن الكريم والحديث النبوي، قد اتفقت مع سفر التكوين في العديد من الأحداث والتفاصيل التي وردت فيما يخص قصة النبي إبراهيم، إلا أن هناك بعض النقاط المهمة التي شهدت اختلافات وتباينات واضحة: اسم أب إبراهيم، ومسألة إلقاء النبي إبراهيم في النار وخروجه منها سالماً، علاقة إبراهيم بزوجتيه سارة وهاجر، ومسألة أهمية إسماعيل وإسحاق وحيز كل واحد منهما في سيرة النبي إبراهيم الخليل.

وبخصوص اسم أبي إبراهيم المذكور في القرآن، فقد قال بعض المفسرين إن اسمه آزر كما هو في النص القرآني، بينما قال آخرون إن آزر يمكن أن يكون صفة وليس بالضرورة اسماً، بينما ذهب مفسرون معاصرون مثل الشعراوي إلى أن آزر هو عم إبراهيم وليس أبوه. أما في الدراسات الإسلامية باللغة الألمانية فقد كتب محمد أسد في أن اسم أبي إبراهيم ليس آزر بل تراح، لكن من الممكن جدا أن يكون اسم آزر المذكور في القرآن مع أسماء أخرى مجهولة المعنى والأصل إشارة إلى الشكل المعرب ما قبل الإسلام لاسم Athor أو Zarah.

يمكن بسهولة كبيرة انتباه القارئ إلى كونية الأفق في قصة إبراهيم القرآنية: إبراهيم أول موحد. في مركز قصة إبراهيم القرآنية توجد وحدانية الله وتفرده. صورة الله هذه تم تطويرها بخلاصات أخرى لا يمكن إيجادها في القصة التوراتية. الإيمان بالبعث: في قصص إبراهيم مع الملك الذي ادعى الملك، وسؤال موسى عن كيفية إحياء الموتى يعلّم الله إبراهيم أن الموت ليس النهاية، إنه إيمان يعتمد على الثقة العقلانية.

ومن هنا يمكن أن ألخصّ أهداف هذا الكتاب كما يلي: في هذا الكتاب، يلقي الباحث الضوء على قصة النبي إبراهيم بحسب ما وردت في المصادر اليهودية والمسيحية، ويبين أهم التفصيلات التي قدمتها الرواية القرآنية لتلك القصة، وكذلك الكيفية التي أثرت بها شخصية النبي إبراهيم في الفكر الإنساني والقصص الديني عند المسلمين وغيرهم. يحتل النبي إبراهيم مقاماً كبيراً في الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية، حيث يعتقد أتباع الديانات الثلاثة أن إبراهيم الأصل الثابت والقوي الذي تفرعت منه سلالة الأنبياء والرسل فيما بعد. وبناء على ما تقدّم مرّة أخرى يؤكّد الكاتب على أنّ القرآن كتاب تعليمي أخلاقي وروحي وكوني. فإبراهيم نموذج وقدوة للبشرية، ومفهوم القدوة يحيل على شخصية تحمل قوة إدماجية كبيرة للأمة الإبراهيمية. أعطى سيدنا إبراهيم الخليل دروسا عديدة للعالم، حيرت الكثيرين وأضحت إنجازاته تتحدث عنه، والتي لم تقتصر على مجال واحد بل تنوعت، لهمته العالية وإصراره النادر، من بينها: الحكمة، والإنسانية، والقيادة، والإقدام، والتآزر، والكفاءة والاعتماد على النفس، ومواكبة للعصر. فمن خلال مسلك الفهم المتبادل والأخلاق المشتركة، والملاحظة الإسلاميّة واليهوديّة لقصة سيدنا إبراهيم وذريته يحصل القارئ على الفهم العميق والتّفكير باهتمام وبدقّة في الجذور الدّينيّة المشتركة. وفي الختام نكرر أملنا الكبير ونقول: عسى أن تتحقّق دعوات الكاتب إلى الحوار بين اليهوديّة والمسيحية والإسلام، على الأقل في المجال النّاطق باللّغة الألمانية، في انتظار تعميم هذه الوظيفة النّبيلة في عالمنا الإسلامي ضمن مراعاة التعددية.

الكتاب: إبراهيم - إسماعيل - إسحاق - أيوب: شخصيات قيادية لليهود، والمسيحيين، والمسلمين
الكاتب: محمد سمير مرتضى.
اللغة: الألمانية.
سنة النشر ومكانه: هامبورغ ٢٠١٨.
دار النشر: tredition Verlag

* باحث في الدراسات المقارنة
الرباط، المغرب

وهم النمو: الثروة.. والفقر.. ورفاهية الأمم
ديفيد بيلينج

عبدالله المحروقي *

يتردَّد دائمًا على أسماعِنا أنَّ دولة ما شهدت نموّا اقتصاديا بنسبة كذا وكذا، وأن اقتصاد الدولة الفلانية تراجع بنسبة كذا وكذا.. فما هو المعيار الذي يقاس به نمو اقتصادات الدول وانكماشها؟ كثيرا ما يستخدم الاقتصاديون والسياسيون مؤشر الناتج المحلي الإجمالي (Gross Domestic Product) كمعيار لقياس النمو الاقتصادي، وكثيرًا ما يستخدمون هذا المعيار للمقارنة بين اقتصادات الدول. فما المقصود بالناتج المحلي الإجمالي؟ وما مدى دقة الحكم على اقتصاد دولة ما من خلال ناتجها المحلي الإجمالي؟ هل هناك بدائل لقياس نجاح ونمو الدول غير مقياس الناتج المحلي الإجمالي؟ يُجيب الكاتب والصحفي ديفيد بيلينج (David Pilling) على هذه الأسئلة في كتابه الصادر في العام ٢٠١٨م والذي سماه: «وهم النمو: الثروة، والفقر، ورفاهية الأمم»، ويناقش فيه استخدام مؤشر الناتج المحلي الإجمالي كمعيار لقياس النمو الاقتصادي.

وقبل عَرض مُختصر الكتاب، يجدر بنا أن نُعرِّف بالكاتب ديفيد بيلينج، هو كاتب وصحفي ومحرر النسخة الإفريقية من الفايننشيل تايمز Financial Times، وعمل سابقا محررا للنسخة الآسيوية، وكذلك رئيسا لمكتب صحيفة الفايننشيال تايمز في طوكيو خلال الفترة من يناير ٢٠٠٢ إلى أغسطس ٢٠٠٨. وتدور كتاباته في عموده في الصحيفة حول الأعمال والاستثمار والاقتصاد والسياسة.

وحسب موقع قناة الجزيرة، فإن «الناتج المحلي الإجمالي هو مؤشر اقتصادي يقيس القيمة النقدية لإجمالي السلع والخدمات التي أُنتجت داخل حدود منطقة جغرافية ما (بلد مثلا) خلال مدة زمنية محددة (سنة أو نصف سنة مثلا)»، ويتم حساب الناتج المحلي الإجمالي لدولة ما عن طريق المعادلة التالية:

(GDP= G+C+I+(E-M)؛ حيث تساوي G الإنفاق الحكومي، وتساوي C إنفاق أفراد المستهلكين على السلع والخدمات، و I تساوي مجموع استثمارات الدولة، ويشمل النفقات الرأسمالية للشركات، وأخير تساوي (E-M) صافي صادرات الدولة (الصادرات - الواردات).

ومن خلال التعريف، بإمكان القارئ الكريم أن يلاحظ أن هذا المعيار لا يعكس مستوى المعيشة في الدولة، ولا يعكس كذلك توزيع الثروة؛ وإنما هو فقط مقياس لما تم إنتاجه داخل حدود الدولة؛ سواء كان ذلك على يد المواطنين أو المقيمين في الدولة.

قسَّم ديفيد كتابه إلى ثلاثة أقسام: مشكلات النمو، والنمو والعالم النامي، وأخيرا ما وراء النمو. وفي المقدمة التي عنون لها بـ«عبادة النمو»، يذكر أن مصطلح الناتج المحلي الإجمالي أصبح مرادفا لمصطلح الاقتصاد. ورغم تحذيرات مبتكر مفهوم الناتج المحلي الإجمالي (لم يذكر المؤلف اسم مبتكر مقياس الناتج المحلي الإجمالي)، أصبح الناتج المحلي الإجمالي مؤشرا لرفاهية الدول؛ فالناتج المحلي الإجمالي هو مرآة تعكس مدى رفاهية المجتمع وحيوية الاقتصاد. ولكن حسب رأي الكاتب، فإن الصورة المنعكسة في هذه المرآة هي صورة مشوهة بشكل كبير وهي صورة لا تعكس الحقيقة؛ فالمرآة التي نرى فيها الاقتصاد هي مرآة مُتحطِّمة. ويضيف الكاتب أن النمو هو وليد عصر الصناعة والناتج المحلي الإجمالي وُضع لقياس الإنتاج المادي (أي إنتاج السلع لا الخدمات)؛ فهو مقياس غير سيء لقياس إنتاج الدراجات وقضبان الحديد، ولكن إذا تم استخدامه لقياس إنتاج الخدمات (كالحلاقة مثلا) فإنه يعطي صورة غير واضحة. وإجابةً على السؤال المطروح: عن مدى دقة الحكم على نمو اقتصاد دولة ما من خلال ناتجها المحلي الإجمالي؟ يجيب الكاتب بأن طريقة الناتج المحلي الإجمالي أصبحت أقل إقناعا ونحن ننتقل من عصر إنتاج السلع إلى عصر إنتاج الخدمات ومن العصر التناظري إلى العصر الرقمي. على سبيل المثال، كان الاقتصاديون يحكمون على اقتصاد اليابان من خلال الناتج المحلي الإجمالي في أواسط العقد الأول من القرن الحالي على أنه اقتصاد يعاني أزمة وركودا. ولكن الواقع لم يكن كذلك؛ فمعدل البطالة كان منخفضا جدا، والأسعار ثابتة وتتجه أحيانا إلى الانخفاض، ومستويات المعيشة لدى السكان كانت في تصاعد. ومقارنة بالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، كانت معدلات الجريمة في اليابان منخفضة، وجودة الغذاء والسلع الاستهلاكية كانت على مسوى عال، ومتوسط العمر المتوقع للمواطن الياباني كان من ضمن الأعلى في العالم. وبالتالي، الناتج المحلي الإجمالي قد يعطي صورة مشوهة للعالم، وكثير مما يُهمنا كبشر بداية من الهواء النظيف، والطرق الآمنة، والاستقرار الوظيفي يقع خارج إطار الناتج المحلي الإجمالي.

يعامل الاقتصاديون الاقتصاد وكأنه ظاهرة طبيعية، وهو ما يرفضه الكاتب؛ فقواعد علم الاقتصاد هي مُخترع بشري وليست كقواعد العلوم الطبيعية التي هي من صنع الخالق، وغاية ما يفعله البشر هو محاولة اكتشافها ووضعها في معادلات. ولذلك يدعو الكاتب الأفراد لتعلم لغة الاقتصاديين حتى يتمكنوا من فهم السياسات التي يضعها الخبراء الاقتصاديون وتقييمها والمطالبة بتغييرها إذا اقتضت الحاجة.

ويستنكر الكاتب التوسع غير النهائي في النمو الذي يقيسه الناتج المحلي الإجمالي، وعبر عن ذلك بقوله: «في الاقتصاد فقط يُعتبر التوسع غير النهائي أمرا إيجابيا، بينما يعتبر ذلك في علم الأحياء (البيولوجيا) ورما خبيثا (سرطانا)». وإذا كان علماء البيئة على حق، فإن السعي اللانهائي خلف النمو والإنتاج يهدد بقاء الإنسان على هذه الأرض.

هذا الكتاب يتحدث عن أمرين؛ الأول: أنه يدعو إلى نزعة الشك فيما يقوله الخبراء الاقتصاديون والشك عند قراءة إحصائيات النمو، والأمر الثاني: ما بدائل الناتج المحلي الإجمالي في قياس النمو؟ ويجيب الكاتب عن هذا السؤال بأنه ليس شيء من البدائل قويا بما فيه الكفاية ليزيح مقياس الناتج المحلي الإجمالي؛ فبدلا من إلغاء مقياس الناتج المحلي الإجمالي، علينا أن نضيف معه ما يجعل نظرتنا لعالمنا أكثر دقة. ومن المؤشرات التي اقترحها الكاتب:

- الناتج المحلي الإجمالي للفرد الواحد (GDP per capita): وهو الناتج المحلي الإجمالي لدولة ما مقسوما على عدد سكان تلك الدولة.

- الدخل الوسيط (أو وسيط الدخل Median

income)؛ وحسب الكاتب فإن هذا المؤشر أفضل من الناتج المحلي الإجمالي للفرد الواحد. ولهذا المؤشر نقطة إيجابية كبرى وأخرى صغرى. أما النقطة الإيجابية الكبرى فهي أنه وسيط وليس متوسط. ولمعرفة الفرق بين المتوسط والوسيط: إذا كانت دولة فيها أربعة مواطنين ومجموع الدخل في الدولة ١٠٠ دولار، وكانت كلها من نصيب مواطن واحد فإن متوسط الدخل فيها هو ٢٥ دولارا. وعليه، فإن متوسط الدخل لا يعطي أي معلومة عن المساواة في توزيع الدخل. بينما وسيط الدخل أو الدخل الوسيط يعطي فكرة عن دخل الطبقة المتوسطة أو المواطن القياسي في الدولة. والنقطة الإيجابية الصغرى لمؤشر وسيط الدخل هو أنه مؤشر للدخل لا الإنتاج؛ فالدخل أهم من الإنتاج بالنسبة للمواطن (التفكير في ماذا لدي لأعيش عوضا عن التفكير في كم رافعة تم إنتاجها هذا العام). حسب نظرية الناتج المحلي الإجمالي، لا بد من تساوي الدخل والإنتاج؛ إذ إننا نشتري ما ننتج وننتج فقط ما يمكننا بيعه (حسب النظرية) غير أن الواقع لا يبدو كذلك.

- عدم المساواة (Inequality): وهناك طرق عدة لمعرفة ذلك، أهم هذه الطرق هو معامل جيني، وهو مقياس من ٠ إلى ١٠٠؛ حيث إن الرقم ٠ يُعبِّر عن المساواة المطلقة؛ وذلك يعني أن جميع من في الدولة يحصلون على نفس الدخل، والرقم ١٠٠ يُعبِّر عن قمة عدم المساواة. ومن الدول التي تتمتع بقدر عال من المساواة الدول الإسكندنافية؛ حيث أن معامل جيني في هذه الدول أقل من ٣٠.

ومن الطرق الأخرى لقياس عدم المساواة: تقسيم السكان إلى مجموعات حسب الدخل، ومقارنة حجم مجموعة ذوي الدخل المتوسط بحجم مجموعتي ذوي الدخل العالي وذوي الدخل المحدود.

- صافي الإنتاج المحلي (Net domestic product): وطريقة حسابه حذف إهلاك السلع الرأسمالية كالطرق والمطارات من الناتج المحلي الإجمالي (NDP= GDP – Depreciation of capital goods)، وفائدة احتساب صافي الإنتاج المحلي هي معرفة حجم مخزون الثروة الوطنية؛ وذلك من خلال معرفة قيمة الأصول بعد الاستهلاك. وهناك من يدعو لمزيد من التركيز على صافي الإنتاج المحلي NDP مثل برينت مولتون (الرجل الثاني في مكتب التحليل الاقتصادي لسنوات)؛ حيث قال للكاتب ذات مرة أن أحد الأسئلة الأساسية عن الدولة هو هل ثرواتها في

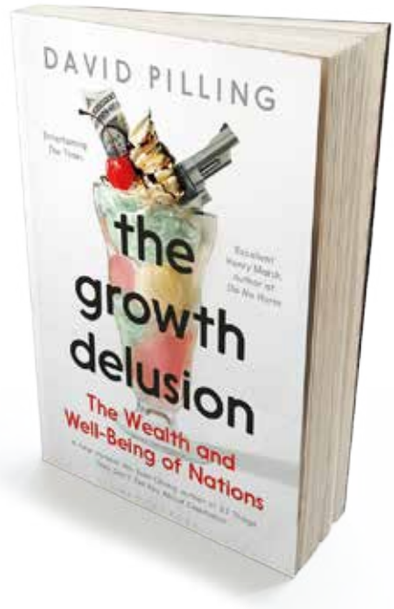

ازدياد أم في نقصان؟ الدول التي لها صافي ناتج محلي قوي هي فقط لديها القدرة على تحسين المستوى المعيشي على المدى البعيد.

- الرفاهية (Well-being): ليس هناك من يدَّعي أن الناتج المحلي الإجمالي للدولة يعكس مدى رفاهية سكانها، ولكن لم يذكر الكاتب أن هناك طريقة معتمدة لقياس مستوى الرفاهية.

- انبعاثات ثاني أكسيد الكربون (CO2 emissions): كمية غاز ثاني الكربون في الجو تعد مؤشرا للتلوث. والغالبية العظمى من العلماء يرون أن أنشطة الإنسان لها أثر واضح على درجات الحرارة في العالم. يشير الكاتب إلى التغير المناخي الناتج عن تلوث الجو بسبب انبعاثات ثاني أكسيد الكربون ويدعو لمراقبة مستوى التلوث وعمل شيء حيال ذلك.

هذه هي اقتراحات الكاتب؛ فهو كما نرى لا يقدم بديلا مُحددا عن مقياس الناتج المحلي الإجمالي، وإنما يدعو لفكرة لوحة القيادة (Dashboard) أي مراقبة أكثر من مؤشر في نفس الوقت. وأحد تطبيقات الفكرة هو «مؤشر حياة أفضل» الذي تستخدمه منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD's Better Life Index) هذا المؤشر يقارن بين ٣٨ دولة من خلال ١١ موضوعا، بدايةً من الإسكان مرورا بالبيئة والأمن والدخل وغيرها.

وبعد تقديمه هذه المقترحات، أوصى الكاتب أيضا بضرورة تقييم الخدمات الحكومية كالصحة والتعليم والطرق، وفي العادة يتم إعطاء هذه الخدمات أقل مما تستحق من التقييم؛ ذلك لأنها تُقدم دون مقابل. وفي حال عدم تقييم الخدمات الحكومية تقييما عادلا، تزداد احتمالية خصخصة هذه الخدمات، وهذا بالفعل ما تود كثير من الدول أن تفعله مدفوعة بحوافز السوق الحرة.

وفي الختام، ذكر الكاتب أنَّ النمو السريع قد يكون مطلوبا في بعض الدول لرفع مستويات المعيشة فيها، إلا أنه يجب أن يكون النمو وسيلة لا غاية في حد ذاته. وفي الاقتصادات التي يطغى فيها إنتاج الخدمات، يُعتبر تحسين الجودة أمرا مهما، ومستوى الجودة خارج نطاق مؤشر الناتج المحلي الإجمالي؛ لأنه فقط يقيس كمية الإنتاج. والاهتمام بالجودة أقل تلويثا للبيئة من الاهتمام بالكم في الإنتاج.

الخلاصة: القارئ قد يظن بداية -بسبب اللغة التي استخدمها الكاتب في نقده للاقتصاديين ولمقياس الناتج المحلي الإجمالي- أن الكاتب قد يقترح بديلا عن الناتج المحلي الإجمالي، ولكن الحال كما ذكر الكاتب أنه ليس هناك بديل يمكنه إزاحة هذا المقياس.

هُناك الكثير مما يجب أن نلتفت إليه عند صناعة القرار، وكذلك عند مقارنتنا بين الدول، ولا ينبغي الاكتفاء فقط بأرقام الناتج المحلي الإجمالي. مقياس الناتج المحلي الإجمالي يقيس الإنتاج، والتسابق إلى الإنتاج الكمي بغض النظر عن العوامل الأخرى له آثار جانبية منها: التلوث البيئي وتغير المناخ، وانخفاض مستوى الجودة، واستنزاف الموارد. لقد وُفّق الكاتب في بيان نقاط ضعف مقياس الناتج المحلي الإجمالي وأهمية تجاوز هذا المقياس بأسلوب ممتع، وهذا أمر يتفق عليه الكثير من قراء الكتاب (https://www.goodreads.com/book/show/36130581-the-growth-delusion).

وإسقاطا لمحتوى الكتاب على واقع الاقتصاد العماني، فإن المتتبع لما آلت إليه أوضاع الاقتصاد العماني يدرك مدى صحة ما يدعو إليه الكاتب؛ فقد نما الناتج المحلي الإجمالي بنسبة ٢,٩٪ بالأسعار الثابتة في عام ٢٠١٨ (حسب الملحق الاقتصادي لجريدة عمان ٢٣ أبريل ٢٠١٩م)، ولكن لا يبدو أن الاقتصاد قد تحسن، فالعجز الحكومي في ازدياد، ومستوى البطالة كذلك، بينما انخفضت تصنيفات الوكالات الائتمانية للسلطنة إلى أدنى المستويات.

- الكتاب: «وهم النمو: الثروة، والفقر، ورفاهية الأمم».
- المؤلف: ديفيد بيلينج.
- الناشر: Bloomsbury publishing، ٢٠١٨م.
- عدد الصفحات: ٣٠٥ صفحات.

*** كاتب عماني**

إصدارات عالمية جديدة

آخر الإصدارات في اللغة الإنجليزية
(محمد الشيخ)

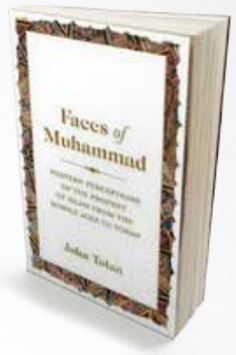

عنوان الكتاب:
وجوه محمد: التصورات الغربية لنبي الإسلام من العصور الوسطى إلى اليوم
مؤلف الكتاب: جون تولان
دار النشر: مطبوعات جامعة برينستون

سنة النشر: ٢٠١٩
ملخص الكتاب:
يبسط هذا الكتاب مختلف "وجوه" نبي الإسلام في تصور الغربيين منذ العصور الوسطى إلى اليوم: "هرطقي" و"مفتري" أم "مصلح" و"رجل دولة"؟ ألا كم تتناقض صور نبي الإسلام في الوعي الغربي! فكم صُوِّر على أنَّه خارج عن الملة وأفَّاق مفتر، بل وعابد أوثان. لكن لحسن الحظ ما كانت هذه هي الصور الوحيدة: إذ ما فتئ أن رسمه البعض بملمح "مصلح رائية" و"زعيم ملهم" و"رجل دولة" و"مشرع فذ"... وفي هذا الكتاب يستعرض تولان ـ أستاذ التاريخ بجامعة نانت (فرنسا) ـ مختلف هذه الوجوه الشديدة التعقيد الهائلة التناقض. وهو يستقصي هذه الوجوه من أيام الحروب الصليبية (محمد الغازي) إلى عهد الإصلاح الديني (محمد المصلح الديني العظيم) وعهد التنوير (محمد المتعصب الديني ومحمد محارب الشعوذة) والقرنين التاسع عشر (محمد الزعيم الحاكم والخطيب المفوه) والعشرين إلى اليوم. وكل ذلك لا يكشف عن شخصية النبي بقدر ما يكشف عن شخصية أولئك الذين رسموه بهذه الوجوه المُتقلبة.

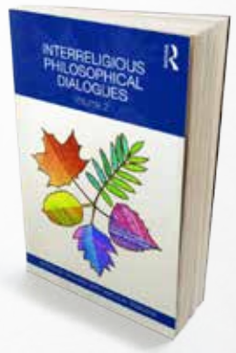

عنوان الكتاب:
الحوارات الفلسفية بين الأديان
اسم المؤلف: كتاب جماعي تحت إشراف أوبي غراهام ونيك تراكاسيس
دار النشر: راوتليدج
سنة النشر: ٢٠١٨
ملخص الكتاب:
هذا الكتاب مجلد ضمن سلسلة مجلدات (صدرت منها أربعة إلى حد الآن) تحمل العنوان نفسه وتقوم على فكرة الملاقاة والمقابلة بين أهل فلسفة الدين من مختلف الأديان وإجراء المحاورة بينهم في جو من التسامح والتفاهم. والمجلد الثاني من هذه السلسلة يدور على جملة أديان وروحانيات في عداد الأربعة ـ الإسلام السني، القبالة اليهودية، المسيحية التجسدية الجذرية، ديانة الشينتو اليابانية ـ وهي نزوعات روحية متقاربة تدخل ـ في هذا الكتاب ـ في حوار ودي بين متخصصين في الأديان وتاريخها وفلسفتها: كل محاور يشارك في الحوار مترجما عن لسان دين معين، وهو مدعو إلى بسط وتبيين صلب عقيدته، وتجسدها في التجربة الدينية اليومية، وفي صلتها بالأديان الأخرى التي تتعايش معها.

عنوان الكتاب:
فكّر ثانية: كيف تستدل وتحاجج
اسم المؤلف: والتر سينوت أرسمسترونغ
دار النشر: بليكان
سنة النشر: ٢٠١٨
ملخص الكتاب:
هذا كتاب طريف ومُفيد في المنطق التطبيقي. صاحبه أحد أشهر أساتذة المنطق على الشبكة العنكبوتية، هو الذي ما فتئ يعطي دروسا شهيرة في كيفية الاستدلال والتعليل والمحاججة. وصاحبه ينطلق من فكرة أن عالمنا الشخصي والسياسي يعج بالحجج المؤدية إلى الخلاف: بعضها قوي وجيه وبعضها دنيء مر علقم. على أنّ المنطق الحجاجي يساعدنا على تقدير الضرب الأول وعلى تسفيه الضرب الثاني من هذه الحجج. يعلمنا هذا الكتاب إذن كيف نتوقف عن النزوع إلى الغلبة في كل مناظرة حبا للجاه وطلبا للصيت، وكيف نصير أكثر تواضعًا بأن نتعلم البناء المشترك للحجج وأن نتبع إرادة إظهار الحق لا الرغبة في إسكات الخصم بأي وسيلة اتفقت، ولو باتباع طريق الأغلوطات غير المأمون.

آخر الإصدارات في اللغة الفرنسية
(سعيد بوكرامي)

الكتاب: الخطأ والكبرياء
المؤلف: روجر سكروتن
الناشر: دار لارتيور. فرنسا.
تاريخ النشر: ٢٠١٩
عدد الصفحات: ٥٠٤ ص
اللغة: الفرنسية.

يستعرض الفيلسوف الإنجليزي روجير سكروتون الموضوعات والمؤلفات الأساسية للمفكرين الذي أثروا وأثروا في الفكر الغربي اليساري خلال الخمسين سنة الماضية: أ. ب.طومسون، ميشيل فوكو، رونالد دوركين، يورغن هابرماس، جورج لوكاش، جان بول سارتر، جاك دريدا، سلفو جيجيك، رالف ميليباند، رالف ميليباند، إريك هوبسباوم وألان باديو.
ماذا يمثل اليسار بالنسبة لهؤلاء المفكرين؟
بأية طريقة استطاع النضال التاريخي لليسار من أجل المساواة أن يتخلى عن الطبقة العاملة من أجل الأقليات؟ ما هي مسؤوليات المثقفين اليساريين في خضم الاضطرابات والاختلالات ومحاولات تفتيت المجتمع المعاصر؟ يقول الكاتب بعد التقييم النقدي لكل عمل من أعمال المفكرين المختارين، يقدم الكتاب رؤية تركيبية للفكر المحافظ السائر نحو الهيمنة في القرن الحادي والعشرين.

الكتاب: اللغز اليوناني تاريخ المعجزة الاقتصادية والديمقراطية (القرن السادس – الثالث قبل الميلاد)
المؤلف: جوشيا أوبر
الناشر: دار لاديكوفيرت. فرنسا
تاريخ النشر: ٢٠١٩
عدد الصفحات: ٥٤٤ ص
اللغة: الفرنسية.

لماذا إعادة كتابة تاريخ اليونان الكلاسيكي، من القرن السادس قبل الميلاد. إلى مرحلة الإسكندر الأكبر؟ أولاً، لأن هناك ثروة من المعلومات الجديدة عن ١٠٣٥ من المدن/الدول التي امتدت من إسبانيا إلى البحر الأسود. ثانياً، لأنه، على عكس ما اعتقد المؤرخون منذ فترة طويلة، شهد العالم اليوناني نمواً اقتصادياً سيظل لا مثيل له حتى عصر النهضة، والذي أصبح ممكناً بفضل اختراع الديمقراطية والحقوق المدنية، على خلفية الابتكارات المؤسسية والتقنية والثقافية الدائمة.
أخيرًا، لأن الإغريق قد جربوا كل موارد الديمقراطية: الانتخابات، ومحدودية المدة، والاقتراع، إلخ. كما فكروا في العلاقة بين المواطنين والقادة، ودور الخبراء، وسبل الحد من قوة الديماغوجيين المزعجين. كل هذه القضايا التي تعد أصل "الازدهار اليوناني" وضعت اليوم في قلب النقاش الديمقراطي الحالي.

إصدارات عالمية جديدة

الكتاب: العام بدون صيف. بركان تامبورا الذي غير مجرى التاريخ.
المؤلف: جيلين دارسي وود
الناشر: دار لاديكوفيرت. فرنسا
تاريخ النشر: ٢٠١٩
عدد الصفحات: ٣٠٤ ص
اللغة: الفرنسية.

بعد مرور عام على واقعة واترلو، اجتاحت العالم كارثة، بقيت في الذاكرة باسم "عام بلا صيف". ماذا حدث إذن؟ في أبريل من عام ١٨١٥، بالقرب من جافا، أدى الانفجار المفاجئ لبركان تامبورا إلى نشر غشاء من الغبار منع ترشيح الإشعاع الشمسي داخل طبقة الغلاف الجوي، تجاهلت كتب التاريخ هذا الحادث الطبيعي الجسيم، بحيث قتل هذا الاضطراب المناخي الملايين من الكائنات. كما كان مسؤولا عن تغييرات ثقافية عميقة، كما يتضح ذلك من رسومات تيرنر أو فرانكشتاين من ماري شيلي.
يدعونا المؤلف للقيام بجولة حقيقية في هذا العالم الكارثي. في اليونان، يتضور الفلاحون جوعا. في خليج البنغال، أدى غياب الرياح الموسمية إلى حدوث طفرة جذرية في جراثيم الكوليرا التي انتشر وباؤها حتى موسكو وباريس وإنجلترا. كما شهدت أيرلندا مجاعة رهيبة، تلاها وباء التيفوس. في سويسرا، ذابت الأنهار الجليدية بسرعة، فدمرت وديانا بأكملها. وفي الولايات المتحدة، تسببت المحاصيل البائسة في حدوث أول أزمة اقتصادية كبرى، وما إلى ذلك. يعود الكتاب إلى حدث مأساوي عالمي، لنسج مقارنة بينه وبين عصرنا الحالي وبذلك يدق جرس التحذير من التغيرات المناخية المتعاقبة وأسبابها الكامنة في السلوك البشري المعادي للطبيعة والمستنزف لمواردها.

الكتاب: تاريخ وثقافات الشتات الأفريقي
المؤلف: باتريك مانينغ
الناشر: دار بريزونس أفريكان
تاريخ النشر: ٢٠١٩
عدد الصفحات: ٤١٢ ص
اللغة: الفرنسية.

يعد تاريخ الأفارقة والشعوب المنحدرة من أصل أفريقي، تاريخا معقدا بطبيعته، لأنه حدث في قلب تاريخ البشرية. لا يمكن الحديث عن تاريخ الحداثة بشكل صحيح دون إيلاء الاهتمام الضروري للقارة الأفريقية والشعوب المنحدرة من أصل أفريقي. يعرض هذا الكتاب ستة قرون من تاريخ الشعوب السوداء منذ عام ١٤٠٠، عندما أقامت روابط على نطاق عالمي حتى وأنه كانت قد بدأت بالعبودية ومآسيها، فإنها شاركت في الثورة الزراعية والصناعية وساهمت في معالم التحضر العمراني. يستعرض هذا الكتاب الهام أكثر من تاريخ لمختلف المناطق أو الدول، إذ يحفر عميقاً عن الروابط المتبادلة بين الشعوب في جميع أنحاء إفريقيا والأمريكتين وأوروبا وآسيا أي كل ما صنع ثقافة وحضارة عالمنا المعاصر. تجدر الإشارة إلى أنَّ مؤلف الكتاب هو باتريك مانينغ أستاذ فخري لتاريخ العالم بجامعة بيتسبيرغ، وهو متخصص في تاريخ إفريقيا وتأثيره على تاريخ العالم. يركز بحثه الحالي على التاريخ الإنساني البدائي، والهجرة في تاريخ العالم، والمغتربين الأفارقة، وديموغرافيا العبودية الأفريقية. يرأس حالياً شبكة التاريخ العالمي.

آخر الإصدارات في لغة ملايالام
(فيلابورتو عبد الكبير)

اسم الكتاب: الفاشية الهندوسية والقومية والعنصرية وكيفية مقاومتها،
المحرر: صمد كوناكافو، اللغة: مالايالام
عدد الصفحات ٤٢٩، سنة النشر ٢٠١٩ الناشر: حركة التضامن للشباب، كوزيكود.

محتوى الكتاب: مجموعة دراسات جادة كتبها نخب مشهورون في كيرالا حول الفاشية الهندوسية الأخطبوطية وأطيافها المتنوعة بتحليل جذورها القومية العنصرية الجنونية بحثا عن طرق مقاومتها باتخاذ سياسة ايجابية موحدة. القسم الأول من المقالات يناقش أصل الفاشية وأصولها ويحدد طبيعتها من خلال تعريفها تعريفا شاملا. توجد فيه مقالات تحت عناوين " جذور القومية الهندية" و"علاقة الديانة الهندوسية بنظام الطبقات" و"ماذا تقول الأساطير الهندية عن الديانة الهندوسية" و"بطلان الوحدة الوهمية في أتباع الديانة الهندوسية" و"رؤية الروحاني نارايانا جورو المعتدلة عن الديانة الهندوسية". وفي القسم الثاني نقرأ العناوين التالية: "نفوذ جراثيم الفاشية في المحافل العامة" و"تسلل الفاشية إلى الأفلام الشعبية" و"ما وراء نظرية الأصالة في الفن الهندي الحديث" و"تقديس اللغة السنسكريتية" و"عناصر التطرف الهندوسية في الثقافة الشعبية" و"المهرجانات التي تتأبط العنصرية" وما إلى ذلك. والقسم الثالث في الكتاب يدور حول مدار الديانة والعلمانية ونظام تغلب الأكثرية والمعارك والتناقضات بين الديانة الهندوسية والعلمانية. والقسم الرابع يناقش موضوعات حرية الاعتقاد وعوائق تحول دون تبديل الديانات وتداخلات الإرساليات النصرانية في المجتمع الهندي. وفي القسم الخامس يبحث أصحاب المقالات عن إمكانية مقاومة الفاشية الهندوسية وضرورتها وعن الطرق المفيدة لتلك المقاومة سياسيا وثقافيا.

اسم الكتاب: التيارات السياسية في الهند عام ٢٠١٩،
المؤلف: د. راجا شيكاران،
اللغة: مالايالام، لغة محلية هندية،
عدد الصفحات: ٢٦٣،
سنة النشر: ٢٠١٩، الناشر: Current Books ، كوتايام، كيرالا

ملخص الكتاب: مؤلف الكتاب الذي درس القانون وحصل على دكتوراه من جامعة كاليكوت هو سكرتير حزب المؤتمر فرع كيرالا وكاتب عمود في جريدة "فيشانام" ("وجهة نظر") اليومية الناطقة بلسان ذاك الحزب. وهذا الكتاب مجموعة مقالات اختارها المؤلف من عموده في الجريدة المذكورة منذ ٥ فيبراير ٢٠١٨ حتى ٧ فيبراير ٢٠١٩. والكتاب حلقة مسلسلة لكتابه السابق الذي تم نشره في العام الماضي بعنوان " سياسة يتغير لونها" والذي صدر منه حتى الآن ثلاث طبعات.
السنة الجارية ٢٠١٩ في الهند حافلة بأحداث هامة وملحوظة. وفي هذا العام جرت الانتخابات العامة حاسمة مستقبل البلاد بعد خمس سنوات من تولي مودي الحكومة. وحيث أن المؤلف أحد مسؤولي حزب المؤتمر فانحيازه تجاه حزبه طبيعي ومفهوم. يحاول من خلال هذه المقالات استنهاض ناشطي حزبه وإعدادهم للدفاع عن مبادئه ومقاومة هجوم شن على حزبه خصوم من أحزاب أخرى مثل الحزب الشيوعي الماركسي وحزب بهارتيا جناتا ذوي الاتجاه الفاشي الهندوسي. وبعض المقالات يركز على الكشف عن فساد الحكومة المركزية تحت قيادة رئيس الوزراء مودي بينما البعض الآخر يكشف على عيوب حكومة الولاية التابعة للجبهة الدموقراطية اليسارية تحت قيادة الحزب الشيوعي الماركسي. ويُلاحظ أن انحطاط الحركة الاشتراكية وصعود الأحزاب المحلية هما السببان الرئيسان لعدم الاستقرار السياسي الراهن في الهند وتشكل الظروف لصالح القوى الهندوسية المتطرفة مما أدى إلى قبضتها على سدة الحكم. ويتمنى الكاتب أن حزب المؤتمر سينهض من جديد من رماده كالطائر العنقاء.

حالياً في الأسواق..

مجلة التفاهم

عنوان العدد: الصلاح والفساد في الإنسان والعمران

المحاور

–**الصلاح والفساد في الإنسان والعمران** – عبد الرحمن السالمي
– **مقدمات الإصلاح بين جدلية الوعي وقوانين التاريخ** – عبدالحميد عشاق
– **الاستخلاف والعمران في ضرورة الوعي بقيم وسنن النهوض والسقوط** – سعيد شبار
– **الفساد والأمن البيئي من منظور إسلامي** – سامي عطا عبدالرحمن
– **أزمة الأنظمة الفكرية الكبرى المعاصرة: الديمقراطية الليبرالية والرأسمالية والشعبوية** – علي الدين هلال
– **العولمة والشعبويات ومصائر الديمقراطية وحكم القانون في الغرب** – ياسر قنصوه
– **النقاشات الفلسفية القارية المعاصرة حول مسألة مستقبل الإنسان ومسألة القيم في عصر الثورة البيو تقنية** – محمد الشيخ
– **أزمة البيئة والتحديات الأخلاقية العالمية المعاصرة .. قراءة فلسفية** – وجدي نسيم
– **العقول الذكية وعبودية الآلة والمصائر الإنسانية بين الرأسمالية والشمولية** – محمد بالراشد
– **الفضاءات الإلكترونية من المعضلات الأخلاقية إلى الآثار السلبية** – أحمد زايد
– **ثورة الزنج وثورات القرامطة.. الشعبويات والتفسير الاجتماعي** – رضوان السيد
– **موقع المسلمين في نظام العالم والبحث عن البدائل** – عز الدين عناية

دراسات

– **التكامل المعرفي بين العلوم اللغوية والعلوم الشرعية عند الشاطبي** – عبدالرحمن يجيوي

وجهات نظر

– **رأس المال الثقافي مقاربة سوسيولوجية** – خالد كاظم أبو دوح
– **إدغار موران وثورات التقنية والمستقبل** – محمد بن سعيد الحجري

آفاق

– **الإسلام ووعي الحرية** – عبدالرحمن السالمي

مدن وثقافات

– **طليطلة في العصر الإسلامي** – عصام السعيد

الإسلام والعالم

– **مسألة العصور الوسطى الاوربية والإسلامية**
إعداد: رضوان السيد

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ – ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+
البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net